الفصلُ الأوّل

[خواطر]

الأَمَلُ

تُقْبِلُ الدُّنيا عَلى بَعْضِ أَهْلِها بِفَرَحِها؛ مُتْرِعَةً إِيّاهُم كُؤوسًا دِهاقًا، وَتُدْبِرُ عَن الآخَرين؛ مُجَرِّعَةً إِيّاهُم الحَنْظَلَ دَفّاقًا... فَيَبْقى الذي حَظِيَ بِفَرَحِها آمِلًا أَنْ تَظَلَّ ناشِرَةً جَناحَ السُّرورِ فَوْقَ رَأْسِهِ، وَمُظَلِّلَةً إِيّاهُ بِغَدَقِ النَّعيمِ؛ كَي يَحْظى بِأَطايبِ العَيشِ؛ وَيُشْبِعَ رَغَباتِ الطَّيْشِ؛ وَيَرْفُلَ بِنَعيمِها حَتّى يُحْمَلَ في النَّعْشِ، وَإِلّا فَإِنَّهُ سَيَشْقى، وَتَبْدَأُ أَفكارُهُ بِالنَّبْشِ، وَيَسوحُ في أَرْجاءِ المَعْمورَةِ باحِثًا عَن هَناءَتِهِ وَسَعادَتِهِ بِالمِعْوَلِ وَالرَّفْشِ... وَيَبْقى قابِضًا عَلى أَمَلِهِ بِيَدٍ، وَعَلى سَعادَتِهِ بِالأُخرى... وَيَحْيا حَياتَيْنِ، تَتَشَحُ إِحْداهُما بِوِشاحِ جَمالِ الثّانِيَةِ؛ في حين يُقوّي أَمَلُهُ مِن إِشْعاعِ مَصابيحِ النّورِ التي تَشِعُّ، وَتُضيءُ له حَياتَهُ .

أَمّا مَن جَرَّعَتْهُ مِن كُؤوسِ مُرِّها، فَيَأْمَلُ أَنْ يَرْتَشِفَ لاحِقًا مِن حُلوِ شَهْدِها، وَيَبْقى مُحَوِّمًا حَوْلَ نَحْلِ أَمَلِهِ؛ كَي يَحْظى بِعَسَلِهِ يَوْمًا ما. وَلا يُمْكِنُهُ العَيْشَ مُتَحَمِّلًا لَسَعاتِ دَبابيرِ الدَّهْرِ، وَلا لَظى مَشاعِرِ

القَهْرِ، لَو لَم يَطْمَعْ بِحَلاوَةِ الشَّهْدِ... وَيَكونُ أَمَلُهُ العِطْرَ الذي يَسْتَنْشِقُهُ، وَيُنْعِشُهُ كُلَّما هَبَّتْ رائِحَةُ هُمومِهِ بِزَخَمِها المُكَدِّرِ صَفْوَ أَجْواء حَياتِهِ ؛ مُنْتَظِرًا مَوْعِدَ ما سَيَعْتَصِرُ مِن الخَلايا لِيَتَذَوَّقَهُ ...

الأَمَلُ حَياةٌ غَيْرُ الحَياةِ ... حَياةٌ مِن نَسْجِ الخَيالِ... نَنْسِجُها وَنَتَدَفَّأُ بِصوفِها هَرَبًا مِن صَقيعِ حَياتِنا الواقِعِيَّةِ، أَو حِفاظًا عِلى حَرارَةِ دِفْئِها، لِلذينَ أَنْعَمَتْ عَلَيْهِم بِالدِّفْءِ!.

هُوَ الجِسْمُ الأَثيريُّ الذي يُرافِقُ أَفْكارَنا وَأَجْسادَنا أَيْنَما حَلَلْنا؛ لِيُعينَنا عَلى التَّقَبُّلِ وَالتَّحَمُّلِ لِكُلِّ ما يُواجِهُنا، مِمّا لا نَرْضاهُ، أَو لا نَسْتَسيغُهُ في مِشْوارِنا الحَياتِيّ؛ لِيُصْبِحَ المُسانِدَ وَالمُحافِظَ عَلى ما يُعْجِبُنا؛ كَي نُحيطَهُ بِجِدارِ الدَّيمومَةِ؛ خَوْفًا مِن فَقْدِهِ ، وَإِكْمالِ حَياتِنا مُتَحَسِّرينَ تائِهينَ!.

هُوَ الدَّواءُ الذي نَبْتَلِعُهُ عِنْدَما تَسْبِقُ لامُ الكَلِمَةِ ميمَها؛ كَي نُهَدِّئَ مِن رَوْعِ وَوَجَعِ ما نَشْكو ؛ وَنَتَجاوَزَ المِحْنَةَ التي قَد تُقْعِدُنا عَنِ الكَثيرِ مِمّا يَهُمُّنا...

هُوَ التَّمَرُّدُ الذي يَشْهرُ السِّلاحَ في وَجْهِ البَطْشِ وَالظُّلْمِ الذي يَرْزَح تَحْتَهُ المظْلومونَ .

إِنَّهُ الفَتيلُ الذي يُشْعِلُ الشَّرارَةَ الأولى، وَتوقَدُ مِن حُروفِهِ شُعْلَةُ الاستِمرارِ حَتّى تَحْقيقِ الانتِصارِ...

هُوَ خُيوطُ النّورِ المُضيئَةُ لِكَهْفِ النَّفْسِ التي خَبا نورُها... يَهديها بَعْدَ أَنْ ضلَّتِ الطَّريقَ؛ لِكَثْرَةِ ما تَعَثَّرَتْ بِهِ مِنْ حَصى التّيهِ وَالغِوايَة، وَرَكَنَتْ في زَوايا الإِحْباطِ وَالرَّتابَة؛ تَنْدبُ حَظَّها بِالمَواويلِ وَالعَتابا...

هُوَ الماءُ الذي يَرْوي تَصَحُّرَ العاطِفَةِ بَعْدَ طولِ جَفافٍ، فَيُعيدُ لَها طُموحَها؛ لِتَنْتَعِشَ وَتورِقَ وَتُثْمِرَ وَتَتَغَنّى بِخُضْرَةِ الواحَةِ، التي تَتَرَبَّعُ تَحْتَ وارِفِ ظِلِّها، وَتَقْطِفَ مِنْ ثِمارِ نَخْلِها رُطَبَ الوِصالِ، وَتَصْنَعَ مِنْ جَريدِها تاجَ تَحقيقِ الأُمنيّات وَتَغييرِ الأَحْوالِ...

هُوَ الطّاقَةُ التي نَشْحَنُ بِها بَطّاريَّةَ الاسْتِمرارِ في الحَياةِ ، وَحُبِّها؛ رُغْمَ إِدْراكِنا أَنّنا نَسيرُ في طَريقٍ مُؤَدٍّ إِلى الفَناءِ، تارِكينَ كُلَّ ما جَمَعْناهُ واحتَضَنّاهُ مِن ماديَّةِ هذِهِ الفانِيَةِ، وَجاهَدْنا مِنْ أَجْلِ الحُصولِ عَلَيْهِ. وَلَولاهُ، لَكُنّا نَقْعُدُ في دُروبِ الحَسْرَةِ نادِبين، وَلِأَواخِرِ الأَيّامِ مُنْتَظِرين، بِأَجسادٍ كَليلَةٍ لا تُصْدِرُ إِلّا الأَنين...

هُوَ الذي يُجْلِسُنا عَلى مَفارِقِ الانتِظارِ؛ لِتَمُرَّ أَحْلامُنا؛ وَنُمْسِكَ بِأَطْرافِ خُيوطِها... قابِضينَ عَلى جَمْرِ الصَّبْرِ بِيَمينِنا؛ وَباسِطينَ شِمالَنا مُتَلَهّفينَ لِبَرْدِ وَسَلامِ تَحْقيقِها ...

وَقَدْ يَطولُ الانتِظارُ سَنَواتٍ، فَلا نَمَلُّ، وَنَظَلُّ نَغْزِلُ بِمِغْزَلِ الأَمَلِ رِداءً بِأَلوانِ الأُمْنِيّاتِ. وَلَكِنْ، قَدْ نُدَثِّرُ بِهِ خَيْباتِنا، وَنُلْقي بِهِ بَعيدًا ... إِلّا أَنَّنا نُعاوِدُ الغَزْلَ وَلا نَكِلُّ...

هُوَ الذي يَنْزِعُ وَتَدَ ياءِ اليَأْسِ مِنْ جُلْمودِ الشُّؤْمِ، وَيُطْلِقُ يَمامَةَ التّفاؤُلِ مُحَلِّقَةً في الأَعالي، وَيَكْسِرُ شُموخَ هَمْزَتِهِ المُشْرَئِبَّةِ بِعَصا الإحْباطِ، وَيَسْتَبْدِلُ بها هَمْزَةَ أُنْسٍ تَبْعَثُ عَلى السُّرورِ، وَتَدْفِنُ الشُرورَ ، وَيَكْسِرُ سِوارَ سينِهِ؛ لِيَسْتَبْدِلَ بِها سينَ سُنْدُسِ الأَفكارِ التي تَبْسُطُ حَريرَها؛ لِتَسْتَقْبِلَ ما سَتَأْتي بِهِ الأَيّامُ، بِفَرَحٍ وَاطْمِئْنانٍ ...

هُوَ... هُوَ... هُوَ...

تُعطينا ونُعطيك

أيّتها المعطاءة التي تجود علينا بكلّ ما نطلب ونريد... فنطمع ونصرخ : هل من مزيد؟! ... تلبّين الطّلب ولا تتضايقين ... نتلقّف ما تعطين، ونمضي مهرولين بأفكارنا صوب مخطّط لكسب جديد ... ناسين أن نحني هاماتنا لك يا سيّدة العطاء، التي لا تأبه لجشع الجشعين ، وحسد الحاسدين، وزهد الزّاهدين ...

عطاؤك وُجودٌ، ووجودُك عطاءٌ لكلّ ما رغبَ راغبٌ وشاء... واستمرارٌ تخبرينا من خلاله- ربّما راضية أو هازئة- أنّك لا تحتاجين للثّناء ...

تعطينا الحياة حين تفجرين ضرعك؛ مُغدقا علينا حليب الوجود ، دون أن تفكّري في الفطام ... يتدفّق مدرارا، ونغترف منه اغترافا ... وربّما دعانا طمعُنا أن نحجز دفقَه بالسّدود والعراقيل ... فلا

تأبهين ... وتسيل مآقيك ماء ثجّاجا... يفرحنا، ولا نفطن بالاعتناء بالعيون المدرارة ...

تعطينا إذنَ الوقوف والدّوس بأقدامنا على أديمك، وأنت مدركة أنّ وجهك الجميل هذا يُمتهن في سبيل خدمتنا، ولكن ربّما كان عزاؤك معرفتك أنّ المادّة تدوس ذاتها .. فأنت الأصل الذي أوجد الفرع، وتستعدّين وترغبين في التّضحية من أجله، وتسمحين له أن يخوض ويجوب في أرجائك كيفما شاء!... ولا تواجهين .

تسهّلين علينا عمليّة اختراقك؛ كي نرسي قواعد حجارتك التي جُدتِ بها علينا؛ لتأوينا وتحمينا من ويلات غيرك .

تعطينا الجمال الذي تعدّدت صوره، ويعجز العقل والإدراك عن الإحصاء... ولولاه لأصبحت الدّنيا خواء، وما تغنّى وأبدع الشّعراء ، وما طرب حسّون وهام نشوان في الفضاء، ولا تراقصت الفراشات في تيهٍ وخُيَلاء ... والنّحلات أنّى لها أن تلثم أفواه أحلى الزّهرات، وترتشف من رحيقها ؛ لتحوّله إلى أطيب المذاقات ؟! ...

أمّا نحن...

فنعطيك جثث موتانا؛ كي تحتفظي بها؛ لأنّا أعجز من أن نبقيها أمام ناظرينا ... تستقبلين ولا تتأوّهين ... ولكلّ ما دفنّا معها من هموم تحتضنين ...

نردّ لك ماءك العذب الصّافي ملوّنا بأصباغ الأذى، وعَبِقا بروائح تزخم بها أنوف المدى، فيصيب الكونَ الزّكامُ ، حين تنتقل العدوى سائرة على غير هدى... فلا تشتكين، وبشحّ الموارد عقابا لا تفكّرين .

نعتدي على حياضك، فنقطع أشجارك، ونقطف أزهارك، ونحرق فتنتك، فلا تيأسين، ولأكاليل الجمال تبقين خير المزيّنين، وتغدقين علينا من بهائك طيلة السّنين.

نمتصّ رحيق خيراتك ونعتصرها، ونقذف في وجهك ما تبقّى من فتات يتحوّل إلى قاذورات ... فلا ترفضين، وتمتصّين ما ساح من وخم وزخم، ولا تلطمين .

نردّ لك الخيراتِ عوراتٍ، ونغفل عن مدح حُسن صنيعك.. فلا تطالبين. لكنّنا، نخشى صمت المحسنين إذا أصبحنا يوما في نظرهم مقصّرين ... نخشى أن تباغتينا بعقاب ينسينا كلّ خيراتك؛ فتهتزّين وتهزّين معك كلّ عطاء وزينة ، فنخسره، وتخسرينا ...

وتظلّ بارقة أمل نأمن فيها غضبك، بعد حسن برّك، حين ترطّب ثراكِ دماءُ أترابك من شهدائك الذين أكرموك، وقدّسوك كلّ التّقديس .. فقدّموا لك خمرة أجسادهم في كؤوس الفداء ... بكَرعِها تنتشين،

وبشذيّ قدسيّتها تتعطّرين ؛ لتبقَي راضية ... ولنا حاضنة وراعية ... وبنا راغبة وآمنة ...

فأنت الرّحم وأنت الولادة وأنت الكرامة وأنت الحياااااااااااة! ...

خَزُّ السّعادة ووَخْزُ التّعاسَة

تربّعت السّعادة على عرش مملكة الأحاسيس، وعقدت اتفاقا وآدم في الجنّة؛ متسربلة بما أُغدق عليها من بركات وخيرات.

حَسُنَت إقامتها، وضربت أطنابها، وتنعّمت وأوّل الخلق البشريّ بسندس العطاء والخير... لكن، لم يدم حكمها، ونُقِضَ غَزْل الميثاق الموقّع بينها وبين مملكتها، حين حاولت سلاسل التّعاسة المنافسة، عارضة وسوستها وإغراءها ممزوجين برحيق ومسك السّعادة، وموشّيين ببريقها. ونجحت في ذلك وغرست أنيابها في فكر وحسّ أوّل مخلوقين بشريّين، فَأزلّهما الشيطان، وارتشفا خمرة الإغراء من كؤوس الخداع، فطُردا من النّعيم خاسرَيْن رغد العيش السّليم!.

مذ ذاك الحين، أقسمت التّعاسة أن تسلب الجمال والزّينة من أصحابهما حيثما حلّت، وأن تزرع الآلام أينما وطئت، وأن تبذر بذور اليأس والإحباط كيفما تسلّلت .

ثارت ثائرة السّعادة التي حُرمت نعيمها، وأقسمت أن تظلّ المحارب الذي يقف لها بالمرصاد، وألّا تسمح لها أن تعيث فسادا في الأفكار التي تحاول أن تتّخذ منها مهادا... وأقسمت أن تشحذ الهمم، وتريح النّفس، وتشحنها بطاقة الأمل والتّأمّل...

لم تأبه التّعاسة واعتبرت نفسَها الحياة. فلولاها لَما وُجد آدم على الأرض، ولبقيت يبابا! فقرّرت أن تستوطن حجرات الفكر أوّلا؛ لتنشئ مستعمراتها، وتهدم كلّ مملكة السّعادة وما قامت ببنائه، حتّى بُعَيْدَ طردها من الجنّة، وذلك لتثير حفيظتها.

تحاول السّعادة تطويق ما بقي من حجرات الفكر بعد خسارتها الأولى بمعاونة كلّ ملائكتها، قبل أن تستولي عليها أبالسة التّعاسة الاستيلاء المطلق... وأنّى لها ذلك مع إصرار سهام الأخيرة على التّحدّي!؟... فها هو دم هابيل يُهرق، ويعجز قاتله عن مواراة سوءته، فيقعد ملوما مدحورا...

ولن تسدّ تلك الدّماء رمقها، وراحت تشهر شتّى أنواع السّلاح؛ كي تشبع جشعها منذ زمن قابيل وهابيل، إلى زمن إسماعيل وميخائيل... في وجه الصّغير والكبير.

فها هو الطّفل يعيش هانئا في كنف والديه، ويحسب أنّ العالم ملكه. يجرّ حبال سعادته متنعّما بها أنّى توجّه... يكبر، فتجرجره أذيال

الخيبة واليأس، حين لا يستطيع تحقيق ما يصبو إليه بعد ضياع أحلامه وآماله.

يعشق المرء ويهيم في واحة عشقه؛ قاطفا الثّمار التي تحلو له. فلا يطول هيامه ويثوب إلى رشده؛ حاضنا صخرة واقعه الجديد التي قذفها الهجر والبعد في دربه؛ فيعيش مدغدغا مشاعره بخمرة العشق الذي كان، ومثقلا كاهله بصلَف ما هو كائن.

يُحرز الكثيرون النّجاح، وينير الفرح عيونهم ووجوههم، ويصرّون على التّمتّع بحرير هذا النّجاح وإبقائه عباءة تدثّر حياتهم؛ إلّا أنّ خيوط هذه العباءة تتقطّع حين تهاجم مقصّات الفشل الأجساد وتبقيها تتألّم آهات، والأرواح التي تتركها تشهق زفرات.

تنعم الأبدان بالصّحّة والعافية، فتسمع أصوات أصحابها لربّها شاكرة، وتفرح وتظنّ أنّ الصّحة خالدة... وما أن يشتعل الرّأس شيبا، وتَهِنُ العظام حتّى تغدو الأفواه صارخة، ولبارئها شاكية، وكأنّا بها للنّعيم الذي عاشته في شبابها ناسية!

وتقبع الأجساد تحت وطأة الآلام خاضعة ولكن، لمصيرها غير راضية.

وتبقى عجلة الأيّام بنا دائرة؛ مغدقة علينا أحيانا من خزّ نعيمها؛ وغارسة أحايين من أشواك جحيمها.

فلتصمدي أيتّها الخيوط الحريريّة التي تدغدغ مشاعرنا في وجه تلك الأشواك ووخزها؛ كي نستطيع الإفلات من أنياب شراستها التي تقوّض أركان الحياة، وتفسد علينا مذاقها .

بين صفريّة الموجود ومئويّة المنشود

في لحظة من لحظات التّفكّر والتّفكير في حياتنا، قد نحسّ بصفريّتها؛ لأنّنا نريد مئويّتها... وبين الصّفر والمئة نضيع، ونضيّع كلّ ما بينهما. وذلك؛ لأنّ لحظة التّفكير هذه قد يلفّها ويدثّرها أخطبوط السّخط، والغضب، والحزن على ما ينقصنا من تحقيق لرغبات دفينة. وحين نلقي بهذا الدّثار جانبا، وننتبه لما نمتلكه – ما بين الصّفر والمئة– نجده كثيرا... وهذا يغيظنا؛ لأنّ حاجة معيّنة نفتقدها تجعلنا في ضبابيّة فكريّة، تحجب عنّا نور وضوء ما نملك، سواء أكان هبة من ربّ العالمين، أو أمرا رغبنا فيه، وحقّقناه، وكان ميزة لنا يحسدنا عليها الحاسدون، ويتمنّاها الرّاغبون...

يحرم بعض الأطفال الحنان في صغرهم... يكبرون، ويكبر معهم هذا الشّعور، حيث ينفخونه، ويخزنونه في خوابي معتمات، ولا يسمحون للنّور باختراقها. يهربون إليها، ويستأنسون بوحشتها، وظلمتها، حين يسلّط عليهم النّور، الذي يرفضون مصابيحه. وكأنّهم

على عهد الحرمان، وتجميد العواطف باقون... ولكلّ دفء المشاعر التي تمنح لهم رافضون... وعن كلّ ما يحرّك مشاعرهم الطّيّبة يعمهون... وأبواب الفرح يصفقون، ويقدّسون طين الشّقاء الذي جبلت عليه نفسيّاتهم القاتمة. ويقضون الحياة على ما مضى يتحسّرون. وعن أجسادهم التي أوجعوها وسربلوها بأشواك تذمّرهم، وسخطهم، لثياب الخزّ التي تأتيهم عوضا، هم ممزّقون. ويظلّون للحظّ نادبين، وربّما بمأساتهم مستمتعين؛ لأنّهم أصبحوا عليها مدمنين. ويضيع العمر مع ضياع مشاعرهم؛ ليصبحوا عند اقتراب نهايته نادمين...

يخفق قلب الفتى أو الفتاة حين تلامس أنامل الحب شغاف هذا القلب طريا، فيحتضن الحبّ حتّى يعشّش فيه، ويتخذ من شراينه صنابير مودّة وعشق يغدقها على الحبيب، ويُغلَّف العقلُ بغلاف القلب، وشفافيته تجاه مَن يحبّ، فيُمنَع من التّدخل لضبط تدفّق الشّرايين؛ لئلّا تنفجر في يوم ما، فيقعد صاحب القلب مهزوما مذلولا... ويبقى كلّ الجسم خاضعا لما يمليه عليه هذا القلب، فينسج العشق أوشحة السّعادة السّندسيّة التي تغطّي مثالب كثيرة، وتلفّ صعابا عديدة، وتحجب عن العين رؤية قبائح مقزّزة ورهيبة.

وتدور دائرة الأيّام، ويحرم القلب البقاء وتوأمه، فتنقلب الأوشحة السّندسيّة مطاطيّة تمنع أوكسجين حبّ جديد أن يخترق المسامات، أو

أن يلامس هذا القلب. وتحرق الآهات والتّنهّدات كلّ جدران القنوات التي تخرج منها؛ ليبقى الاصطلاء ووهجه مانعين دخول من يحاول الاقتراب والتّطبيب.

وبعد يأس، وعيش بأس، وتخطيط وفحص، يرتبط صاحب القلب التّعس بزوج ...فالحياة تتطلّب التّكاثر والبقاء، واستقرارا قد يعوّض الخسارة والعناء. وقد يلعب والحظ لعبة رابحة، ويحظى بمن تحبّه، وتتمنّى أن تكون ظلّه، وتزيل كلّ همّه، ولكنّه يبقى حبيس وهم عشقه القديم، وتغدو مشاعره كالمطّاط الذي غلّف به قلبه، تمطّها وهميّة سعادة ما مضى، وتقلّصها واقعيّة حياة ما أتى...

ويعيش شرذمة مشاعريّة، لا يجد فيها وهج نيران عشقه القديم، ولا ينفعه همس حبّ يمنحه محبٌّ جديد...ويطوي سنوات عمره ناقما على الموجود، ومتحسّرا على المنشود. ويظلّ وَهْم تحقيق مدفون الرّغبات هو المرغوب... ويتذمّر لكثرة ما ينوء تحته ممّا جلبه لنفسه من المصاعب والخطوب.

يُحكِم الفقر أغلاله حول معاصم كثيرة مدّة وجيزة، ثم تفتح أبواب الرّحمة والفرج والإغداق على الأيدي المكبّلة؛ لتحرر وتبسط وتحظى بخيرات المشتهى والمرتجى، فتمتلئ الجيوب وتنار الدروب؛ أملا أن

يغرس الفرح أوتاده في القلوب؛ لتبقى عامرة بالشكر، ولتمحوَ ما سببته أيّام ندب الحظّ والفقر من ذنوب...

بعد كلّ هذا، ترى الوجوه وكأنّها وشمت بالكآبة، والأجسام تتحرّك برتابة، ولا شيء ممّا تمرغوا لأجله على ثرى الدّعاء، يجلب لهم السّعادة... لا يكتفون بما نالوا، وألسنتهم تلهج: هل من مزيد؟... بل تراهم في فلسفة فقريّة يقولون: لو كان هذا فيما مضى، أيام أرّقنا العوَز والجوى... فلا هم في نعيم الغنى يرفلون، ولا ذلَ الفقر يطلّقون... ومنهم من يجبرهم الحرص على خزن ما كسبوه؛ لأنّهم يخافون أن يفقدوه... ويظلّون دائمي التّفكير بما عانوا ويعانون، فلا هُم مع المال متأقلمون، ولا لحياة شحّ موارده ناسون... وخوفا من فقد الموجود، يعيشون الفقر؛ ليحافظوا على الغنى الذي أخفيَ، ولا يظهر للوجود.

وتظلّ النّفس على أرجوحة تحقيق الرّغبات، تتأرجح على أغصان الحيرة فيما تملك وما تريد، وربما ظلّت تدور في دائرة هل من مزيد؟!...

سباحةٌ بينَ الحُروف

أرغب المكوث بين زوايا حروفك الأربعة؛ لأبقى حبيستها ومحروسة بكنفها .

إنّي أروم من "رائك" رتق ما تفتّق من وشائج وأواصر الإيمان والفكر؛ لكثرة ما صُبّ فوقها من قصدير الملهيات، والمشقّات الدّنيويّة، فتفكّكت، وذابت بعضٌ من روابط الخيوط التي رغبت في إحكامها الأبديّ؛ كي أحظى بديمومة المباركة والهناء ...

أحبّ من "حائك" حَبْكَ كلّ حبال الفكر والجسد، بعد رتقها وربطها بوتد الخشوع والمناجاة؛ لئلّا تنفلت من عقال لذّة الفوز بجائزة التّقرّب إلى خير قريب، والنّجاة من كلّ الذّنوب ...

أطمع بِ "ميمك" مباركة الوقوف، والمكوث في رحاب من أحببنا سرمديّة المكوث بين يديه، ولسوء حظّنا، تجبرنا مشاغلنا وأهواؤنا الدّنيويّة على التّغيّب أحيانا، وقلوبنا تعتصر ألمًا، وتتحرّق شوقا

للعودة إلى كنفه، طامعة بالقبول؛ لأنّه أحسن المُظلّين لمن أراد أن يستظلّ بظلّه، ويستنير من نوره، بعد أن هفا بابتعاده اللامقصود، ومشى في دهاليز التّقصير والابتعاد ...

وأعشق من "تائك" تقبّل التّوبة، والفوز بالخَمرة التي تنعش النّفس، وتوقظها من سبات المُلهيات؛ لتعود مطمئنّة راضية مرضيّة، لا لاهية ناسية منسيّة... وكذلك الفوز بزيت مداواة وتطهير الجسد من لسعات حروق الآثام، التي تشوّهه، وتجرّه إلى هوّة الذّنوب، والمهلكات...

ألا، فدثّريني أيّتها "الرّحمة"، ونثّي شذاك الذي يعبق بمسك مميّز تنضحه رشّاشات علويّة؛ لتطهّر به آفات سفليّة جذبتها رغبات دنيويّة، نسيت نعيم الحياة الأبديّة، وتاهت وأضاعت ميزاتها الفطريّة، ووهنت عن الإمساك بالخيوط الإيمانيّة.

وإنّي لأتذلّل لمرسلك أن يبسط جناحك عليّ ليلفّني بِراءِ رتقك، وحاء حبكك، وميم مباركتك، وتاء تقبّل توبتي ...

اكتمالٌ وتَجْزِئَةٌ

قالَ الكُلُّ متباهيًا: أنا مَن بُشّر أهلي بالرّحمة، والفوز السّرمديّ؛ إن ظلّوا تحت كنفي، ولم يحاولوا نتفَ ريش جناحي؛ كي يفلتوا ويلحقوا بسربِ مَن لا يتحملني ويطيقني...

أنا من حمل أتباعي رايات الخنوع دون تذمُرّ ونذور؛ لأنّ في تذمّرهم نقصانا يخلّ بتوازن الأمور، ويُغيّر ما في الصدور، وما كان من تِبر الثّبور يُمسي تِبنَ الأجور.

أنا مسطور على قلوب، لا يعرف الجزع إليها مسلكا، ولا تلقى الشّكوى فيها ملجأ، ولا القنوط مرتعا.

سمعت الأجزاء ذلك، فأغاظتها قلّة اعتبارها مما تلقّفت آذانها، وراح كلّ جزء ينضح ما في إنائه في وجه الكلّ.

قال الجزء الأوّل:

أنا الصدّ لأمواج الوسوسة التي تضرب بي، وتبغي سحبي إلى بحر التّذمّر والمعاصي... تنخر حجارةَ جداري ولكنها، لا تستطيع هدمَ سوري، ودخولَ حياضي.

أنا صمتُ الصّراخِ وصراخُ الصّمت... إن تجاوز يومًا ما حنجرتي أبحّها، وأخرسَ حناجرَ الآخرين.

أنا الصّيّادُ الوحيدُ الذي تلتقطُ صنّارتي عوالقَ البحرِ، ولا أغضبُ لعدمِ الفوزِ بالسّمكة... وأظلُّ ألقي بها؛ علّي أفوزُ ذاتَ مساءٍ، بعدَ خسراني في كلّ الأصباحِ.

قال الجزء الثاني:

أنا البحرُ المجهولُ... أعماقي غَورٌ لأصعبِ الأمور، وأمواجي هَمٌّ جَسور، وشاطئي غيرُ مأمون. تصبّ بي ينابيع ذات شجون... أحتضنها ولا أشكو رائحتها... وتمخر عبابي بواخر بشتّى المواد، وندرة العتاد، ولا يدري بثقل الحمولة إلّا ربُّ العباد.

أنا البُعدُ عن كلّ ما يملكه غيري من المحظوظين... أعصبُ العينيين، وأثبّتُ الجوارحَ بأوتادِ أديمِ الزّاهدين؛ كي لا تتمرّد وتفلت؛ مشتهيةً أطايبَ الآخرين؛ فأقعد متحسّرًا في زوايا المحرومين، وأندبُ حظّي مقارنًا إيّاه بحظوظِ الوافرين.

أنا البَرُّ الذي تحتل سهولي أشواكُ وحسكُ النّباتات التي تشمخ، فتذبلُ الزّهراتُ الورديّاتُ، ويصبحن للعطر مصرّراتٍ محسّكاتٍ؛ ليجدَني مَن مرَّ بي؛ آملًا الاستمتاعَ بربيعي، قد افترشني يبسُ الجَمال، واعتراني سوءُ الحال، ولكنّي، لكلّ هذا غيرُ مبال.

قال الجزء الثالث:

أنا الرؤيةُ المغايرةُ لرؤية الآخرين... ما يرَونهُ سخطَ القدر، أنظرُ إليه بشذرات النّظر. وتساندني الرّؤيا التي تحزمُ خيوطَ المعضلاتِ، وتعدني بجدل حبالِ المسهِّلاتِ.

أنا الرّسالةُ التي كُتبَت حروفُها بمدادِ الابتلاءِ والمعاناة، ولا يستطيع أحدٌ فكَّ رموزِها؛ إلّا إذا غاصَ في بعضٍ مِن حروفها، وعَلِقَ به أثرٌ مِن مِداد نزيفِها... ورسالتي ليست من الرّسائلِ المطويّاتِ في صناديق مهمَلاتٍ، تعتصرُها لذّةُ أو شقاوة الذّكريات.. إنّها رسالةٌ تتطلّب العيونَ اليقظات، والقلوبَ الخاشعات، والألسِنةَ اللهِجات بأقدس الكلمات؛ طمعًا في انقشاع سودِ الغيمات.

أنا الرّضا بما يسكُنُ ذاتي، وإن أدّى إلى غريب الخلجات... أبثّ سرورا أرضي به كثيرَ ذوات، وأكتمُ الحزنَ حُزمًا وذؤابات؛ لأنّ ابنتي القناعة تحدّثني أنّ هذه الحزمَ مصيرُها في إحدى الصّبيحات، المغادرةُ إلى أقصى الزّوايا والجهات.

أنهتِ الأجزاءُ استعراضَها، وتباهيها، وعادت يلملمُ بعضُها بعضا، من يَمينِها لِشِمالِها، فأعادت الصّادُ والباءُ والرّاءُ لحْمَتَها؛ بعد أن أظهرت أنّ قيمةَ الكلِّ من قيمةِ الأجزاء...

وقفَ الكلُّ مغتاظًا بسبب التّجزئة... وهو الذي يقف باكتماله جبّارًا ممتصًّا كلَّ الصّعاب، ونفسُه تسوّلُ له التّقليلَ من قيمة الأجزاء، بالتّفكيكِ ثانيةً، وإعادةِ جمعِها من شمالها ليمينها؛ ليريها فلسفةً غيرَ فلسفتها التي تباهت بالتّجزئة، لكنّه انتبه لكون الأجزاء والكلّ حقيقَتَه التي يعتزُّ بها!... فتراجع وهتف:

إنّني أنا الكمالُ، وإن بدا ظاهري شوكًا يخزُ أفئدةَ، وجلودَ مَن يعايشُني، وطعمي مُرًّا يُفسدُ حلاوةَ فمِ مَن يتذوّقني... فإنّ باطني حلوٌ مذاقُه، سهلٌ اغترافُه، وأبديٌّ هناؤُه لمن استطاع الصّمودَ، وحفظَ العهود؛ أمَلًا بأن يَحظى برضا الرّبِّ المعبود، وتحقيقِ المنشود .

في الخفاء

تلفّ أوشحة التّقصير عدالة الإنسان حين لا تطال مصداقيّتها سوى الظّواهر من الأمور، ويخفى عليها الكثير من البواطن التي هي أشبه بخلايا سرطان تفتك بعظام عظيم القضايا، ولا أحد يتمكّن من حقنها بالأمصال الكيماويّة للقضاء عليها؛ لأنّ أجهزة الفحص والتّشخيص لا تطالها، ولا تدري بها إلّا الصّدور الحاقدة، والنّفسيّات الشّاردة في وعورة تخطيطاتها التي تبغي إلقاء غيرها في قعر الهاوية؛ كي تظلّ رغباتها الجامحة في السّيطرة هي السّائدة والسّائرة في دروب التّدمير؛ لإشباع شهوة الافتراس لكلّ ما تبغيه.

يعيش البعض وأفعى الحقد في داخله تنفث سمّها، وتغرس أنيابها فيمن حولها، وتتناسل راغبة في القضاء على كلّ الأجناس إلّا جنسها. فمثل هؤلاء لا يهنأ لهم بال إن داس غيرهم عتبات النّجاح، أو رفرف لواؤهم في سماء الرّفعة أو غنّت لهم الأيّام مواويل النّصر وإحراز الأهداف... فتراهم يتقرّبون منهم زلفى، ويدعون عليهم

بزوال نعمائهم خلسة، يرسمون الابتسامات على وجوههم حين لقياهم تودّدا، ويسطرون الغضب على قلوبهم حين مغادرتهم تذمّرا...

تتوطّد روابط الصّداقة بين اثنين ، فتغدَق المشاعر بالأرطال، ولا يعرف حدّ لسطوة العواطف والفكر هذه؛ حتّى يبيت كلّ واحد في دائرة وفلك الآخر، ووعاءً ينضح فيه كلّ ما عنّ على الخاطر. ويصل الأمر إلى خشية أحدهما من بُعد توأم روحه كي لا يخسر ذاته... تتوالى الأيّام، وتنقلب الأحوال ليرتقي أحدهما سلّما للنّجاح أو الشّهرة، فتذهل عيون الصّديق النّاظر إلى من أبقاه حظّه على قارعة الطّريق الذي بدأاه معا، وهو يتلوّى لاعنا وشاتما حظّه مقارنة مع ندّه. ويتطوّر الأمر لبثّ إشعاعات الحسد والغيرة صوب من كان الرّوضة التي يجلس في أفيائها وقت الهاجرة، ناسيا ما تناولاه من طيب الثّمار، ويدخل دائرة يضيق محيطها بتساؤلات واهية: لمَ هو ولست أنا؟! ولا يخطر بباله أنّ هناك قوى علويّة تدير الدّفّة، وتقرر عيش الإنسان في رخاء أو شدّة، وأمورا غيبيّة لا يعلمها إلّا ربّ البرية.

تلفّ عباءات الفضيلة أجساد من يدّعون أنّهم الفضلاء، ولكنّهم لأسمالِ الرّذيلة عبيدٌ في الخفاء، حين يشتهون أجساد من حرّمت عليهم من المحصنات اللاتي يرغبون بهنّ في أحضانهم إماء...

يحسبون ألف حساب لنظرات من يعرفونهم من الأهل والخلّان، فيمسكون بحبال المحبّة والإغداق لسموّ السّلوكيّات. ويتمسّكون بمناصبهم الاجتماعيّة التي ارتقوا إليها، يعضّون عليها بالنّواجذ، ويعتبرون أنفسهم في صروح العزّة والإعزاز، ويسيرون مجرجرين لأذيال العفّة، والنّاس من ورائهم تبغي أن تحظى ببركة اللّمسة. وبعيدا عن العيون يزاولون أعمال البذاءة والخسّة ؛ من امتهان للقيم الأخلاقيّة، واستهزاء بالشّيم الاجتماعيّة، وضرب لمصالح الآخرين ممّن كانوا في منزلة أدنى؛ لتبقى مصالحهم هي الأعلى. وقد يطرقون أبوابا لا يطرقها إلّا الأراذل، ويصرّون على الاحتفاظ بمكانة بين الأكابر.

يهيم الأزواج عشقا بأزواجهم متوّجين أحاديثهم بشهد كلام مقدَّما بقوارير مزيّنة بزخرف المشاعر فيستسيغ طعمه الطّرف الآخر، ويتمنّى إبقاء حلاوته على لسانه ليبعد عنه طعم ما يهاجم البال من همّ وكدر...

وما إن تلمح عيونهم جمال الحسان حتّى ينسوا ما سال منهم من معسول الكلام، بصمةً على ميثاق الحبّ لمن اختاروها شريكة في السّرّاء والضّرّاء... وأحيانا يطلقون الأعنّة لأفراس قلوبهم لتطارد ربّات الجمال وساحرات الألباب .

ولا يقتصر هذا الأمر على الرَّبع من الرّجال، بل يتعدّاه إلى النّساء. فمنهنّ الماكرات اللواتي يصطدن بشباكهنّ ما طاب لهنّ من صيد... توزّع إحداهنّ جميل الأحاسيس بالأرطال، وتُشعر كلّ من فاز بقلبها أنْ قد أزهرت له حدائق الأيّام... وتظلّ لسلسلة المكائد ضاغطة عليها بإحكام، ومتلاعبة بالقلوب مرتكبة جرائم الكذب والخيانة والنّفاق...وتداهن وتذرف من الدّمع ما يعبّئ جرارا، حين يفلت أحدهم من صنّارتها وكأنّه الوحيد المحتلّ لقلبها!.

ومنهنّ من تحبّ رجلا، وتتزوّج من آخر. تعاشر الزّوج وتهيم في صحراء العشيق السّابق، متأرجحة بين أشواط أرجوحة الخيال وسرير الواقع الذي تنتهك حرمته بالتّحليق في سماء الأحلام.

تتزيّى نسوةٌ باللّطافة وتتباهى بحبّ الخير، وربط أواصره بين أفراد العائلات متظاهرة بالتّسامي والدّعوة إلى التّعاون والتّآخي. وفي الخفاء تنخر أرَضَة أفكارها وشعورها، أوتاد الخير الرّابطة للمجموعة وقاطعة خيط الوداد بين الأقرباء إلّا من الجزء الذي يخصّها وعائلتها المصغّرة، من زوج وأولاد، فإنّها تؤزّره لتظلّ أسرتها برباط الوفاق، وبنهر من الحبّ دفّاق تروي منه شجرات بستانها، وإن جفّت مياه بساتين المحيطين، واشتعلت النّيران في الهشيم، وبات الجميع على رماد عيش جسيم!.

يتباهى الأهل في أحاديث النّهار بالذّرّية، ولا يظهرون سوى بسط الأيادي كلّ البسط في التّعامل الودود، والسّعي الدّؤوب وراء ما فيه الخير للأبناء، ولكنّهم يغلّون أياديهم إلى الأعناق في التّمييز بين من يدّعون أنّهم قرّة أعين لهم ... يميلون بقلوبهم ناحية أحد أبنائهم، ولا يتمكّنون من الإخفاء، وإذا ما سئلوا أجابوا بأنّ للقلب ما يريد، ولكنّهم يعملون جاهدين للإنصاف، ولا يفطنون أنّ ميل قلوبهم قد يجعل نيران الكراهية والغضب تأكل قلوب من لا يحظون بمكانة مثل أخيهم، فتنهش ذئبيّة إخوة يوسف قلوبهم حقدا عليهما. ومن الأهل من يبذل الغالي والنّفيس في سبيل الارتقاء بأحد الأبناء إلى أعلى درجات العلم، محتجّين بعدم الاستطاعة الماديّة لتحقيق طموحات ابن آخر. وهم بهذا يدقّون أسافين الكره والعدواة، فتفقس الحسرة حسراتٍ تأكل من وجبات أيّام المحروم؛ لتجعل سنوات عمره عطشى لماء أراد شربه من كوثر رغباته، ولم ينهل سوى الجفاف...

غيض من فيض زلّات وجرائم الخفاء التي تحدث على مسرح، خشباتُه ينخرها سوس الخداع والرّياء ويحتاج إلى ترميم وإعادة بناء. وتعوز المسرحيّون البعيدون عن عين الضّمير وحساب الأنا، الصّحوة والمراقبة، وتتبّع العورات، ليس لأجل لأجل الموت همًّا، بل لحياة أكثر سلاما وأمنا!.

بِرُّ العُقوق

أَيُّها المُعَشِّشُ في خَلايا الفِكْرِ والرّوحِ، ضارِبًا فيها أَطْنابَ مُسْتَعْمَراتِ الأَشْواقِ إِلَيْكَ، تَجوبُ فيها فَتَجْعَلُها رَوْضَةً غَنّاءَ، تَعْزِفُ طُيورُها أَلْحانَ فَرَحٍ لُقْياك ... وَتُغادِرُها فَتَنْعَبُ غِرْبانُ التَّحَسُّرِ فَقْدَ مُحَيّاك ...

رَسَمْتُ مَلامِحَكَ التي غابَتْ طَويلًا، فَتَجَسَّدَتْ أَمامي وَجْهًا جَميلًا أَغوصُ في عَيْنَيْهِ وَقْتَ غاراتِ أَحْزاني، وَأَخْتَبِئُ بَيْنَ أَمْواجِ الزُّرْقَةِ، التي يُطَهِّرُني ماؤُها مِنْ بِراثِنِ الشَّكْوى، وَيَقيني آلامَ زَفَراتِ الحَسْرَةِ ... لكِنَّكَ، تَمَلُّ سِباحَتي سَريعًا، وَيَقْذِفُني مَوْجُ عَيْنَيْكَ إِلى الشّاطِئِ؛ لِأَجِدَ عَيْنَيَّ قَدْ غَطَّتْهُما صُفْرَةُ الرِّمال، وَمُنِعَتا مِنْ رُؤْيَةِ الجَمال؛ فَأَجْلِسُ عَلى صَخْرَةِ الكَآبَةِ وَأَنا أَخْشى خَطَرَ الانْزِلاقِ إِلى الأَعْماق، وَأَسْمَعُ هُتافَ نورِ البَصيرَةِ يُناديني؛ لِيَضَعَ بَيْنَ يَدَيَّ مَجاديفَ زَوارِقِ الإِنْقاذِ، فَيَزْدادُ حَنَقي، وَأَتَمَنّى لَو أَعَدْتَني إِلى شاطِئِ أَمْواجِ عَيْنَيْكَ؛ لِأَرْتاحَ وَأَسْتَكينَ ...لأنّك الزّوْرَق الوحيد الذي أبغي...

عَلّقْتُ صورتَكَ جداريَّةً على حائطِ قَلْبي؛ كَي يُغَذّيَها دَفْقُ المَحَبَّةِ؛ وكَي تَكونَ الطَّبيبَ الذي يُجري لَهُ القَسْطَرَةَ، إذا ما تَراكَمَتْ فَوْقَ شَراييِنهِ زُيوتُ الشَّوْقِ إلَيْكَ؛ ولِتُحافِظَ على وَتيرَةِ دَقّاتِهِ إنْ شَوّشَها ضَغْطُ مَحَبّتِكَ ...

انتَظَرْتُكَ في بُهْمِ لَيْلِ الأَفْكارِ نَجْمًا هادِيًا، تُمْسِكُ بِتَلابيبِ الفِكْرِ، وَتُهديهِ الطَّريقَ السَّوِيَّ؛ لِكَثْرَةِ ما يَرِدُ جَحيمَ المَشاعِرِ الذي يَحْرِقُهُ بِشُهُبِ الحَنين، وَيُبْعِدُهُ عَنِ اليَقين، فَلا تَظْهَرُ وَلا تَبينُ ...

أَرَّقَتْني الوَحْدَةُ، وَغَرَسَتْ غيلانُها أَظْفارَها في أَحْشائي، فاسْتَحْضَرْتُ طَيْفَكَ لِلإقامَةِ والتَّطبيبِ ... وَما هِيَ إلّا دَقائِقُ حَتّى يَخْتَفيَ حُضورُكَ؛ رُبّما هازِئًا أو خائِفًا مِنْ مُواجَهَةِ غيلانِ الوَحْدَةِ التي تُغْمِدُ خَناجِرَها في دُروعِ السَّعادَةِ، إنِ اقْتَرَبَتْ مِمَّنْ تَلُفُّهُم بِرايَةِ تَعاسَتِها، وَتَتْرُكُها تَنْهَشُ كِياني وَتَحْتَلُّ أَفْكاري، وَتُوَلّي ...

سَهَّدَتْني المُتَمَنَّياتُ قابِضَةً عَلى حُروفِها، وَمُحْكِمَةً الإمْساكَ بِميمِها وَتائِها؛ لِئَلّا تَدورَ عَلَيْهما الدَّوائِرُ فَتَفْلَتا وتَسْقُطا، وَتُلْغي المَنِيّاتُ بَهاءَ وُجودِك الوَهْمِيّ...

اخْتَطْتُ مِنَ اللَّهْفَةِ لاحْتِضانِكَ، عَباءَةً حَريريَّةً تَلُفُّني وَإِيّاكَ، وَتَمْتَصُّ وَهَجَ الشَّوْقِ، فَيُدَثِّرُني نَسيجُها، وَيَبْسُطُ نُعومَةَ خُيوطِهِ... لكِنَّكَ، أَبْقَيْتَ اليَدَيْنِ في رَجْفَةٍ، تَحْتَضِنانِ شَوْكَ عَباءَةِ النَّكْسَةِ التي زَمَّلَني بِها صَدُّكَ ...

عَزَفْتُكَ لَحْنًا تَرْقُصُ عَلَيْهِ مَشاعِري، فَرَقَصْتَ عَلَيْها، وَعَزَفْتَ أَلْحانَ الاغْتِرابِ والجَفاءِ، وَحَوَّلْتَ الطَّرَبَ إِلى حُزْنٍ وَعَناءٍ ...

هاتَفْتُكَ عِنْدَما هاجَتِ الحَواسُّ وَماجَتْ، وَعِشْتُ فَوْضى شُعورِيَّةً عارِمَةً أَتْعَبَتْني؛ فَسَمِعْتُ حَشْرَجَةً زادَتْ مِنْ حالَةِ الهياجِ، وَأَقْعَدَني القَلَقُ عَلى كُرْسِيِّ الدُّعاءِ لَكَ بِأَنْ تُرَدَّ لِصَوْتِكَ المَوْجاتُ التي تُريحُكَ، وَتُداوي قَلَقي ... وَأَقْبَعُ مُنْتَظِرَةً سَماعَ صَوْتٍ تُشَنِّفُ بِهِ الأُذنان، وَتُخْمَدُ نيرانُ الأَشْجان...

تَوَهَّمْتُكَ في صَيْفِ الأَفْراحِ عَريسًا تَدعوني لِرَقْصَةٍ "زورْبِيّة" تُنْسيني تَقَرْفُصَ وَجُمودَ الشِّتاءِ وَصَقيعَهُ، وَتُرْسِلُ أَفْراحي مُحَلِّقَةً في

سَماءِ البَهْجَةِ... لكِنَّكَ، أَبْقَيْتَ عَواطِفِي مَقْرورَةً، وَطُموحاتي مَحْمومَةً بِحُمّى القُعودِ في زِوايا اللافَرَحِ ...

ناجَيْتُكَ في صَباحاتِ الأَعيادِ مُفَرْقِعًا الفَرَحَ، وَعازِفًا أَلحانَ الطَّرَبِ ،وَمُضيئًا لِفانوسِ السَّعادَةِ، وَناثِرًا الحَلْوى عَلى مُرّي، وَمُسْتَبْدِلًا بنَعيبِ البومِ الذي حَطَّ على شَجَرَةِ فِكْري، عنْدَلَةَ العَنادِلِ الجَميلَةِ ... مَرَّ طَيْفُكَ وَلَمْ أَسْتَطِعِ الإمْساكَ بِهِ .

أَي بُنَيّ ... تَخَيَّلْتُ... هَمَسْتُ... قُلْتُ... نادَيْتُ... صَرَخْتُ... هاتَفْتُ... هَذَيْتُ... ناجَيْتُ طَيْفَكَ وَاسْمَكَ، يَوْمَ تَحَلّقَ الأَبْناءُ حَوْلَ أُمَّهاتِهِم مُحْتَفِلينَ جَذِلينَ، فَلَمْ تَسْمَعْ، وَلَمْ تَلْتَفِتْ، وَلَمْ ...

وَارْتَدَّ الصَّدى يُلاطِمُ جَنَباتِ روحي وَإِحْساسي، وَاحْتَضَنْتُ خَيْبَةَ أَمَلِ مَجيئِكِ بِذراعَي القَهْرِ، وَأَطْبَقْتُ شِفاهَ قُبُلاتِ الوَهْمِ عَلى الجَفافِ؛ شاكِيَةً مُحالَ التَّرطيب وَبُعْدَ التَّرْحيب ...

وَبَقيتُ واجِمَةً وَقَدْ أَخْرَسَني عُقوقُكَ، الذي أُسامِحُكَ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّ القَدَرَ أَقْعَدَكَ عَنْ بِرّي حينَ عَقَني بِتَغييبِكَ عَنّي لِحِكْمَةٍ شاءَها... حِكْمَةٍ بَذَرَتْ في داخِلي بِذْرَةَ يَقينٍ أَخْبَرَتْني وُرَيْقاتُها التي أَيْنَعَتْ بَعْدَ حينٍ، وَنَجَحَتْ في الوُقوفِ بِوَجْهِ الرّيحِ، أَنَّ تَقَبُّلَ عُقوقِكَ هُوَ بِرٌّ بِرَبِّ

العالَمين... وَهُوَ البِرُّ العَظيمُ... وَأَنَّ عَقْلانِيَّةَ اليَقين تُحَتِّمُ أَنْ تُهْزَمَ شَهْوَةُ الحَنين .

بِطنة وفِطنة وفِتنة

حميَ وطيس المعركة، واشتدّ أوار العصارات الحامضيّة، فتأوّهت ساحة تلك المعركة؛ لأنّ أسنّة الوجع قد أشبعتها وخزا؛ طالبة الضحايا لإذابتها ... ولمّا لم تجد نخرت طلقاتها المكان... فصاحت الأرجاء:

ويلي! ما به صاحبي قد نسي إمدادي بالذّخيرة، والعتاد اللازمين للصّمود في وجه هذه الحرب الضّروس للأحماض التي تعصرني عصرا؛ علّها تجد ما يسدّ رمق حنقها، ويرضي جشع شهوتها، وبتّ لا أقوى على مواجهتها؟

لم تدركِ المعدة كُنْهَ الأمور، وهولَ ما يدور، عندما طال حرمانها، وأخذ التّعب منها الكثير، وبات يؤرّقها ما آلَ إليه حالُها، فرفعت لواء الاحتجاج في وجه هذا الخواء الذي يجرّ عليها جريرة شرسة . ولكنّ احتجاجها لم يجدِ نفعا في تلبية رغبتها؛ بل جلبت الاستهزاء لنفسها حين صاح بها العقل:

ما بال صاحبتنا؟ ألا تستطيعين تحمّل الرّاحة من ثقل العبء ساعات؟ وفي ذلك إراحة لك ولغيرك ممّن تثقلينهم بثقل ما تلتهمين؟!...

أراك شاكية باكية، ولست متحمّلة حرمانَك رغباتِك من طيب مشتَهياتك التي أتخمتك كثرتها، ووددتُ إراحتك بعض الوقت من عنائها!... تثورين وتولولين ليسيرٍ ينقصك، ولم أرَكِ مرّة قد التفتّ لما ينقص غيرك من أقرانك ... فلا تأبهين لبلواهم، ولا تشعرين بشكواهم.

ها أنا أُترَك فترات دون تغذية بما أشتهي وأبغي ... قد ينسى صاحبي أو يتناسى حاجتي في التّزوّد بما هو جديد، ويتركني أجترّ ما غذّاني به في الماضي السّحيق، فلا أستسيغه؛ لأنّه يلغي كلّ جديد، ويتحكّم بي تحكّم الأسياد بالعبيد.

إنّ طعامي مختلف ويحتاج إضافة توابل بنكهات مختلفة؛ كي أُسعِد الآخرين بموائد الفكر وبساتين المعرفة، ويحظَوا بالتّباهي بالمذاقات الجديدة للأطعمة، وليس مثلك إذا ما كثر ما يزوّدك به صاحبك، وكثرت التّوابل، وزادت من حرارة طعامك؛ فإنّ حمّى الشّكوى تكوي غيرك... فيتعب الجسد، ويقعد خاملا، فتغادرني الفطنة، وتغدر بي الحكمة!.

رغم هذا، تحرصين أن تزَوّدي بما تريدين، وتدأبين على نيل ما ترغبين، وأراك بكلّ نعم الكون الالتهاميّة تطمعين، وما يتخمك لا ترفضين.

غضبت المعدة وهي التي تحسب أنّها المموّل والمغذّي الرّئيس للعقل ... تتعب في الطّحن والعصر، وتتخمها زوائد الحاجة؛ طمعا في التّنويع، وأحيانا تتألّم؛ طمعا في رضا الآخرين ... وها هي توبّخ ولم تجد لها نصيرا، ويبدو أنّ سدّ الرّمق بات عسيرا؛ لأنّها تبغي معاقبة العقل الذي يتبجّح ، وينكر فضلها، ولا يشكر خيرها وما تقدّمه له سائغا غزيرا...

حبست أنفاسها وفي نيّتها الصّبر على جوعها؛ كي تجوّع العقل؛ ليدرك قيمتها، ويعترف بفضلها، مخفية ما تعانيه من عدوان الغارة الحامضيّة؛ لئلا تزيد من شماتته!.

لم تستطع الصّمود طويلا، فخارت قواها، وأصبح دأبها الدّؤوب ملء تجويفها بما تحتاج وتريد؛ ممّا زاد من غرور العقل الذي يدرك مصابها، فأردف يخبرها:

أدري بمعاناتك، وأعرف أنّك لا تستطيعين السّيطرة على غريزة الالتهام التي بها تتميّزين، ودونها لا تعيشين، وإن لم أشفق عليك وأرحمك، ستبقين رهينة ما تعانين. أنا الوحيد الذي أنهي أعذبتك،

وصرخات الأنين ... بشدّ لجام غريزة الالتهام؛ لتكتفي بالقدر القليل الذي يشبعك فلا ترهقين!

هل لا تزالين تتبجّحين بأنّك صاحبة الفضل عليّ وعلى الآخرين؟!

وفيما المعدة محتارة بأمر غريزتها الالتهاميّة التي بات العقل يملك زمام أمرها- حسبما ادّعى- صرخت:

أيّها المتحكّم بالغرائز، لماذا تحاول السّيطرة عليّ؛ محاولا منعي من النّعم التي أُحلّت لي، وينتفع بها غيري، وأتحمّل النّقص والزّيادة لأجلهم؟ تشدّ لجامي، وتترك الحبل على الغارب لغريزة الجسد التي كانت التّابل المحرّم، ولا يكشف سرّه إلّا من أحلّ له وبشروط وقيود؟!... فها هو توابل معروضة في كلّ أسواق المعروضات، سلعة تتنافس الشّركات في كيفيّة عرضها وكشفها؛ ممتهنة حرمة الجسد، وهاتكة مقامه ... وما كان مقدّسا ووجب عليك المحافظة على قدسيّته، دنّس وامتهن وأصبح الطّعم في مصيدة اخترقت كلّ ميادين الحياة سرّا وجهرا!... وجعلت النّفس عبدة للإغراءات المحرّمة، والتي حاربها وعيُك بأوامر كتب ربّانيّة.. اتّبعها العديد ممّن آمنوا بها، ولم تبق إلّا القلّة القليلة التي تؤمن بما كان، ولا تستطيع السّيطرة على ما هو كائن!

لقد اختُرِق (التّابو) وانتُهكت حرمته، وتجاوزت الاختراقات الحدود، والمنكر أصبح معروفا ، فشرّعت الأبواب، وعرض على الملأ ما أخفته خلف مصاريعها، ولم يعد المتفرّجون والمشاركون يميّزون، ويدركون ما هم فيه منغمسون، وعواقب ما به سيقعون!...لأنّهم في مياه الفتنة التي جرفتهم غارقون، وبأظفارهم هم بها متشبّثون !

فأين أنت أيّها الممسِك بحبال الغرائز، الرّاغب بفرض سلطتك عليّ بشحّ الموارد والقناعة بالقليل، بينما موائدك تعجّ بالكثير من التّوابل المحرّمة التي أضحت غذاءك ، وما تزوّد به لا يخلو منها، تضاف للكلمات، والمشاهد، والمسموعات... وما خلا منها بات لا يسمن، ولا يغني من جوع ... أين أنت من كلّ هذا يا مهذِّب ؟ يا من يتوقّع منه المنع والثّورة ؟ هل بتّ تخشى الثّورات والتّمرّد على ما يقوّض أركانك وكينونتك؟ أم أنّك اعتدت غير المألوف فصار مألوفا؟ أم أنّ العقال اهترأ وخرجت الأمور عن سيطرتك ؟

لماذا لا تشدّ الحبل للغريزة التي دنّست المقدّس، وخلطت الأنساب، ولم يعد يعرف الابن الشّرعيّ من غيره في دساتير أمم كثيرة ؟ هل انقلبت الآية فسيطرت عليك وعلى فطنتك غريزة الانفلات الجنسيّ والجشع العاطفي؟ أم أنّك تحاول السيطرة على الأمور مبتدئا بتهذيب

غريزة الالتهام التي أصابتها الشّراهة، مثلما أصابت كلّ الغرائز؛ كي تعاود الإمساك بدفّة القارب وتوجيهه الوجهة الصّواب ؟!...

الرّاحلون إلينا

كَمْ هو قاسٍ ذلكَ الشّعورُ الذي تَخْتَرِقُ سِهامُهُ أعْماقَنا، وتُمَزّقُ سَكاكينُهُ أوْصالَنا، وَتَحْتَلُّ تَداعِياتُه أفكارَنا، حينَ التقاطِ الأُذنِ لذَبذَباتِ كَلِمَةِ الرَّحيلِ، واستيعابِ العَقْلِ أنَّ فيه استحالة عودة الرّاحلين...

وَكِمْ يَكونُ أشَدَّ قَسوةً، عندما نرفضُ تقبّلَ ابتعادِ، ومغادرةِ مَن أحبَبْنا إقامَتَهُ بينَ ظهرانينا؛ رغمَ تملّكِهِ لأحاسيسِنا؛ حيثُ نَأبى الإيمانَ باللاعودةِ، فنُطارِدُهُ؛ أمَلًا أنْ نَبقى مُمسكين بتلابيبِ مشاعِرِنا التي أغدقناها عليه؛ وطمعًا بتجديدِ ما كانَ يمنَحُنا مِن شعورٍ سكَنَ ذواتِنا، وَتَزاوَجَ وَمشاعِرَنا !.

عجيبٌ وغريبٌ ذلكَ الدّفقُ العاطفيُّ الذي ندلقُهُ خلفَ مَنْ رَحلُوا، وكأنّا نأمُرُ ديمةَ مشاعرِنا باللّحاقِ بهم، وإغراقِهِم بمطرِ محبّتِنا؛ كي نُقنعَ دواخلَنا أنَّ عواطِفَهُم نحوَنا لا تزالُ رطبةً، ولن تجفَّ رغمَ عزلِها، وستبقى مثلما عَهدناها، وطامعين بِنَداها ...

والأغربُ أنّنا نجدّدُ العواطفَ، ونضاعفُ مِن تدفُّقِها نحوَهُم... فها هوَ الموتُ يَخطفُ منّا عزيزًا، ويغيّبُهُ في ساحاتِ الغيبِ؛ لِنشعرَ بعدَ

حينٍ أنَّهُ يرحلُ إلينا، وليس عَنّا . فيسكنُنا ونسكنُهُ، ويحتلُّ معظمَ ما يحرّرُهُ العقلُ من أفكارٍ، وجُلَّ ما تفرزُهُ العاطفةُ مِن مشاعِرَ .

تُقيّدُ سلاسلُ الفَقدِ كُليّتَنا، فنرغبُ أحيانًا في شدِّها؛ لئلّا تفلتَ منّا، وتُحرّرَ ما قيّدتْهُ؛ رغمَ إدراكِنا أنَّنا نخوضُ غمارَ حربٍ عاطفيّةٍ خاسرةٍ !.

تجفُّ مآقينا ترطيبًا لذِكراهم التي نبغي إبقاءَها حيّةً بدمعِ العطفِ والمحبّةِ، ونحيى بها مُعتزّينَ، وبزرعِها داخلَنا مُتباهينَ...

ونقضي العمرَ، وفراشاتُ أطيافِهِم تحلّقُ فوقَ رؤوسِنا، وصليّاتُ حنينِهِم لا تُبارحُ لسعاتُها جسومَنا، فَتَغدو للجسدِ كاويةً، وللرّوحِ حارقةً... ونعيشُ حالةَ تلبُّسٍ وتقمُّصٍ.

ننامُ... نقومُ... نصحو... نغفو... نصرخُ... نصمتُ... نحزنُ... نفرحُ... نقسو... نلينُ... نتعبُ... نرتاحُ... نأبَى... نرضخُ... لا تفارقُنا الأطيافُ ولا لَظاها ، ولا نريدُ لها فراقا... ولا ندري لماذا؟!...

يفرّقُ الدّهرُ بينَ المحبّينَ، فيرحلُ الحبيبُ جسدًا، وتظلُّ الذّكرى دثارًا يلفُّ جسدَ المُحِبِّ. يعيشُ داخلَهُ ناسجًا من خيوطِهِ بيوتًا محجوبةً عنِ الأعيُنِ، يُسكِنُها عواطِفَهُ القديمةَ بلوعتِها، والجديدةَ بحرقَتِها... ويشدُّهُ أحيانًا؛ ليشعُرَ بالدّفءِ، وينجُوَ من صقيعِ البردِ العاطفيّ .

ويقضي عمرَهُ تطاردُهُ الذّكرى، فتَراهُ يقعدُ مناجِيًا ما مَضى، وسابحًا في فضاءِ أحلامِ ما انقضى؛ فيستفيقُ متأخّرًا حزينًا على ما ضاعَ من أوقاتِهِ سُدى، ومندهشًا من حالِهِ الذي يَرى... فيحرقُ عليهِ الأُرّمَ، ويتمنّى لو هداهُ اللهُ، وسَقاهُ من كأسِ الهُدى، لينسى عذاباتِ مَنْ قَد هَوى.

في انتظار...

تتقزّم الأوقات والأعمار أمام مارد الأحلام التي ننتظر تحقيقها، وننير في سبيلها كلّ شموع السّنين؛ أملا في الاحتفال بميلادها لحظات، دون دراية لبواعث استعدادنا أن نقدّم أعمارنا أضحية على مذبح تحقيق تلك الرّغبات...

نستعدّ لنيل ما نريد مدجّجين بكومات من الأفكار نطلقها في دروب المسير الطّويلة، لا نملّ ولا نكلّ كثرة المشي... نرسم ونخطّط، وأحيانا نعيش لحظة الإنجاز، وإن وهمًا، وتسكننا نشوة ذاك الخيال، وتسرقنا دغدغة المشاعر، وتسلب وقتنا أيضا... وقد نصحو على هباء الاحتضان... وتتناسل الخسارة مُنجبة نسلا يجرّدنا ممّا تبقّى من مخزون العاطفة والفكر، أو محوّلة مجرى النبع ليصبّ في بحر الغضب على ما تراءى لنا قيد الظّفر، وأضحى قيد القهر، فنشعر بحاجتنا لمعجزة تردّنا إلى الطّريق السّويّ؛ خوفا من بقاء الغضب ممسكا بيد العاطفة، وجارّا إيّاها نحو مسالك الانتقام من النّفس، التي

يُخشى عليها تجميد سيولة التّفكير بكلّ جديد، وحجب ذاتها عن الرّؤى المستقبليّة والتّنويريّة للمحافظة على بقاء سليم...

قد تُلقي الحياة في دروبنا زهرة جميلة، فتجرّنا تلك الزّهرة للتفكير بولوج بستان، فنبدأ بالهرولة وراء الرّائحة التي أزكمت أنوفنا هنيهة؛ كي نحظى بأريج زهرات دهرا... ونحرص أشدّ الحرص على إروائها ومنع ذبولها؛ لتأتي بالكثير من مثيلاتها، ونكسب البستان الذي ستزهر به الآمال، وتنمو في تربِهِ فسائل الأحلام... فيباغتنا الذّبول، ويداهم الإيناع الذي عشناه وهمًا، وسقيناه ودّا، ويبقينا على قارعة الدّهشة بعيون حيرى، وقلوب تلتاع... ويتخرّم حرير أحلامنا بشوك ذاك البستان الوهميّ، وتظلّ مشاعرنا رهن عرك رحى الخذلان، متمنّية غسل ذكرى الإحباط بماء النّسيان، وغير مدركة لما تهدره من سنين وأيّام، وهي تغزل على نفس المنوال...

نخطّط ونبذل في سبيل التّنفيذ جلّ ما ملكت أيادينا، وعصارات أذهاننا، وسيول مآقينا؛ أملا أن تزهر لنا الدّنيا وتنضج ثمار الأمنيّات... وحين الجني يرقص القلب، وتعزف أوتاره أجمل الألحان، وتأتي الفرحة حاملة صاحبها على جناحَي بلبل النّشوة، فينسى المنتشي تعب وحرق وقود الأيّام والليالي، ويعيش اللّحظات ويتباهى بها... وبعد قصير وقت، تعاف نفسه ما اعتادت عليه، وما

باتت فيه، فتراه قد امتطى مطيّة الضّجر، وصار يطلق رشقات التّذمّر من جعبة سهام التّأفّف والملل... وإن ذُكّر بما عانى وشكا لتجسيد ما ابتغى، تجده ساخطا كارها الملام، حابكا حبال سخطه جديلة يلقي بها على ظهر العتاب؛ لتظلّ محبوكة بدبابيس الشّكوى وأشرطة التّذمّر... وربّما بدأ في الوقوف بمحطّات انتظار جديدة لاعتلاء حافلة أمنيّة أخرى، ويظلّ في سفر وانتظار...

تناسُلُ البياضِ

تناسلَ البياضُ مُنجبا صفاء حبّ القلب لك، والغطاء النّاصع الذي لفّ جسدك بألق، والدّنيا التي عشت فيها ولم تسطر على بيض صفحاتها إلّا الآهات المعجونة بالدّموع الخرساء ولم أفهم معاني حروفها التي بلّلت صفحات الخدّ الأسيل، حين تدفّقها من نبع المآقي... تناسل مرسلا ملاكا حمل روح الطّهر والبراءة إلى الأعالي بأحد جناحيه، وفارشا الصّمت على بياض أغطية سريرك بجناحه الآخر...

لحظات من نور لفّت المكان وغلّفت ببهائها كلّ شيء، وفرضت الرّهبة وعبق الخشوع أمام عِظم الموقف، ثمّ حلّقت روحي نحو الأعالي شاكرة الرّبّ الذي أسدل علينا غطاء من رحمته، حين أرسلك لنا وحين استردّك إليه لتسكن روحك مكانا أكثر جمالا وسكينة...ولتفسد رهبتها كلمات النّدب والتّعديد تحسّرا على فراقك... لقد تحوّلت الرّهبة إلى ثقل أوجعني، وأوقعني أرضا مشوّشا رؤيتي، وكأنّ العتمة احتلّت المكان لتنيرها إضاءة شريط أيّامك التي قضيتَها

بيننا قريبا وبعيدا، رغم أنّك كنت زادا نثر بركته على مائدة عائلتك باختلافك عمّن تحلّقوا حولها غير منكرين لطعم ونكهة تواجدك، وشاكرين القوّة التي منحهم إيّاها عجزك.

لمّا كنت هناك وقفت حمائم أيك الشّوق تنشر سجعها في سماء الدّعاء راجية منك الوصال بكلمة تريح أجنحتها من كثرة الرّفرفة حولك...لكنّك لم تستجب لهديلها فراحت تنوح علّ الله ينطقك بردٍّ على نغمة أحزانها وتغريد فوق أغصان آمالها، إلّا أنّ القدر أبقاها تعزف على قيثارة أوجاعها، وهي ترى الشّفتين جامدتين، والعينين حائرتين لا تقويان على المساجلة، وظلّت قابعة في برج ملازمتك؛ خوفا عليك من نسمة تلامس خدّك وتزعجك بدلا من ملامسة يد دافئة...

ولطاما سبحت الأفكار في بحر لجيّ متسائلة عن شعورك ومتمنّية معرفته منك أنت، وهي التي خطّته بريشة الفؤاد على صفحات اللّحظات كي لا تغيب عن البال؛ خوفا من وخزة تشعر بها، ولا تتمكّن من التّعبير عن الاحتجاج لألمها.

لَكَم تساءلت: ترى هل أنت راضٍ عمّا يجيش في خاطري، ويغزله مغزل أفكاري؟ أم أنّ الخوف الزّائد عليك يزنّرك بحزام الضّيق ويزيد من شدّ زنّار ضعف عضلاتك التي لا تقوى على تحريكك؟!

وتغمرني تساؤلات حدقَتَي عينيك، حين اجتماع إخوتك حول سريرك مداعبين حرير شعرك، وكأنّهما تصرخان بي وتلوماننني : لمَ لا تستطيع يداي العبث بشعري مثلهم، ولا تقدر قدماي على الوقوف واللعب معهم؟ لمَ أنا مختلف ولِكلّ ما ينعمون به مفتقد؟!

يحرقني لهيب التّساؤلات، ولكن ما يطفئ من نيران لوعتي أنّهم منك قريبون، وللاهتمام بك جاهزون.

تفتح روضات الأطفال أبوابها داعية كلّ البراعم إلى سهولها... أقف على باب روضة براعم الأمل وأتخيّلك جالسا بين أترابك، وأتسمّر هناك بانتظار خروجك، وصوتك يصدح مالئا الفضاء شدوا وضحكا... يطول الوقوف ولا تتحقّق للعين بُغيتها، ولا للرّوح فرحتها لحظة يذكّرني طيفك أنّك هناك على فراش لا تبرعم الآمال فيه ولا تزهر.

تتعاقب حلكات الليالي التي تسمعني أنينك الخافت وقت يغمض جفني المتورّم سهدا، فأهبّ مذعورة لنجدتك، ولكنّ تلك الأجفان تطبق على خيبة جهلي لما يبكيك!. وتحملني آهات سهدي على بساط الخوف من التّقصير وعدم إرضائك؛ كوني أجهل سبب أنينك، وأظلّ في حيرة حتّى تجعلني نغمات صوتك أوقن أنّ الأمر فادح، ولا بدّ من تدخّل أهل العلم والطبّ لحقنك بما يهدّئ وجعك الذي كثيرا ما كانوا لأسبابه

يتكهّنون، ولوجيب قلبي لوعة وإشفاقا عليك يزيدون لدى رؤيتك مقيّدا بمطّاط أجهزة تحيط بك، وتراقب جديد ما سيطرأ عليك.

مكثت طويلا بينهم، لكنّهم لم يقووا على إبقائك بيننا؛ لأنّ إرادة الله أقوى من كلّ ما حاولوا ولم ينجحوا، وما أرادوا ولم يعرفوا. وها أنت قد تناولتك يد الرّحمة لتقلّك إلى سرير الرّاحة السّرمديّة.

الصّمت

أيّها المولود العدميّ الآتي بعد مخاض عسير الأمور، ركنتَ في زاوية السّكون؛ هربا من كثرة الحركة والضّجيج، تخفي بين ثناياك اللاشيء... حروفك تأمر بالصّوم والموت، فملازمة صادك لميمك تقول (صم)، ومجاورة الميم للتّاء تقول (مت). وليس عبثا أن تكون لبنتك من هذه المكوّنات، فأنت الصّوم والموت للصّوت والفعل والحركة!.

أنت الفناء إن صام الفكر، فإمساكه عن الطّعام يؤدّي إلى الجفاف، والجفاف ينذر بكارثة اللابقاء. فلا وجود لحياة قد جفّ نبع التّدبير، والتّخطيط، والإمساك بزمام أمورها. ستعصف بها الرّيح، ولا تبقي إلّا الهشيم متطايرا.

إن سكنتَ اللسان، فأنت البكَم الذي يلغي كلّ نغمات الكون...

كيف ستصدح العنادل، وتغرّد البلابل، ويتراقص الأطفال لهدهدة الأمهّات، ويناجي العابد ربّه في جوف الليالي، والأسحار وكلّ الأوقات؟!...

وإن طالت أطرافُك الطّبيعة؛ لتقعدها عن الحركة، فلا جدوى من سكون مياه الأنهار والبحار. صمتها سيدعو النّتانة لتسكنها، والقتامة لتحضنها، فتهجرها النّوارس والبجعات المتباهيات؛ لتستوطنها الطّحالب والقاذورات... وتأباها حتّى الغربان النّاعبات!

كيف ستتراقص عرائس الطّيور في العرائش وعلى تيجان الأشجار، إذا ما قرّرت الأشجار لزوم الصّمت، والمكوث بدون حراك؟!...

ومن سينشر روائح الأزهار التي تنتشي بها الصّدور، وتنعش الجسم بعبق الشّعور، إذا ما أعلنت الرّياح إضرابها عن الحركة والتزمت الصّمت والسّكون؟!

انتفض من جدثك أيّها الصّمت، واخرج شاهرا تمرّدك... انفض عنك غبار الكتم، وذرِّ في الفضاء تراب البوح؛ كي تصهل كلّ الكلمات، وتردّد صداها الفضاءات ، قائلة هي ذي الحياة، في الحركة وليست في السّكون والممات!.

قم وارضع الحركة؛ كي تعيد للحياة حبوها ثمّ جريها وبهاءها...

اكسر القيود التي كبّلتك، ومدّ ذراعيك لتحرّك كلّ ساكن، واترك الزّوايا، وامش في ميادين الحياة؛ لتسمع فيها أصوات ساكنيها، ولتسبّح كلّ الكائنات مسمعة صوتها، وشاكرة ربّها على عظيم الهبات...

جَنّة الأمانة وجحيم الخيانة

هاج نحل خلايا دماغي، وانغرست إبر لسعاته في عظامي، وغاب عن البال طلب البرء أو التّداوي، حين ماجت الذّكرى، وفتحت جراحات من أحاطهم القلب بهالات الودّ والتّسامي، وأرشفهم رحيق محبّته، وإخلاصه أياما ولياليي... وآثر صاحبه أجاج البعد، وفضّله على عذب تجديد التّداني، وعَشقَ التّسهيد على ذكرى الوداد، وما غَزَلَ من جميل الأحلام؛ رغبة بإبقائها حيّة تروي العطش لأيّام خوالٍ، ولتطفئ نيران ثورة لسعات مسبّبات التّجافي... وخوفا من الكفر بقيمة جوهرة يتزيّن، ويعتزّ بها بعض من الأنام، وتراهم بها كثيري التّباهي إن ظلّت تزيّن تاج الإخلاص والتّفاني...

كتبوا عنه الكثير، وجاءوا بالحكم والأقاويل... وكلّ في جعبته ما يسرّه أو ما يبكيه. منهم من اعتبره الكساء الذي يستره ويحميه، والبيت الذي يأويه، والجوهرة التي تغنيه، وإن خسرها، لا يجديه كلُّ تعويض ، ولهيب مشاعر حبّه لها يكويه.

ومنهم من اعتبره الجواد الذي يمتطيه حتّى تحقيق ما يبغي ، ولا يهمّه إن كان بعد ذلك قتيلا يرديه؛ طالما نال منه كلّ ما يشتهيه...

واحتار الناس في تقييمه بين مؤمن بأفضاله وجميله، وكافر ببرّه ووجوده... وباتوا حيارى بين الإثبات والنّكران، ونظموا في ذلك الأشعار...

صادُه صِدقٌ ينسج خيوط الوداد في كلّ تعامل دون اجتهاد؛ لتغدو المشاعر بعيدة عن بريق الزّيف، غارقة في بحر الهناء الذي يغدق بلا تسويف. وتصبح الحياة جنّة محبّيها، وملهمة عاشقيها، وفردوس مقدّسيها... لا شيء يعكّر صفو مريديها، ولا ضباب يحجب الرّؤيا عن عيون ناظريها.

وهي الصّبابة للعيش الرّغيد برفقة تزيل الشّجن عن القلب الحزين؛ مخاطبة النّجوم... تطلب ضوءها؛ لتزيل الغمّة وتلقي بها في أحضان كوكب بعيد يشحنها بنور الفرح، ويصقلها من جديد، ويعيدها إلى الصّدر بهجة دائمة تتحدّى أيّ تهديد، وتهدهد إرهاق المتعب، وتزوّده بأجمل الشّعور...

داله درع يُحتَمَى به من النّائبات، وصروف الدّهر، والمعضلات، ويقي ما يهاجم الجسد من سوداويّة فكر قد ترهقه، أو سواد فعل من

أعداء قد ينهكه، حين يواسي ويؤنس الوحشة ويزيل الغمّة، ويقف مدافعا في وجه من يبغى له الكربة.

وهي الدّواء وقتما يحاول الدّاء نهش الجسم، وإبقاءه خواء؛ إلّا من تباريح الألم وضعف الهمم.

ووقت قيظ الفكر، وتعب الجسد هو الدّوحة التي يستظلّ بظلّها ... وخير زاد لجائع وملهوف يؤمّها.

ياؤه يمّ من الجود والخير عند شحّ الموارد، إنّه المنهل الذي ينهل منه ولا ينضب... هو يمّ الحُبّ حينما تجفّ ينابيع القلب، ويعتريها التّصحّر، ويضطرّ الملهوف للّجوء إليه؛ طالبا السّقي والإرواء، فلا يبخل بدلاء الإغداق والعطاء.

هو اليسر لكل عسر... إن ضاقت الدنيا وغلّقت أبوابا، فإنه يفتح منها الكثير؛ ليدخل المحتاج، وهو يشعر بالتّيسير والتّرحيب، وفرح ينسى كلّ تكدير، ويظلّ الكرم الذي يلغي البخل ويجود بالغالي والنّفيس.

قافُه قدوة حسنة لمن أراد أن يقتدي، ويحظى بالخير والبركة. هو لفعل الخير سبّاق، وللنّجدة يهرول باشتياق، وهو النّهر الدّفّاق لكلّ نخوة ، ولا يبغي سوى المودّة والوفاق بين النّاس، شاقّا دروب المحبّة والعطاء والإخلاص، فلا يسود الحقد والنّفاق.

إنّه الصّديق... الكنز الذي يختلف عن غيره من الكنوز، فهو لبيض الأيّام وسودها، إذا ما حافظ على جودة جواهره؛ إضافة إلى بريقها. يحفظ رسمه داخل إطار، ويعلّق على جدار القلب؛ كي يحظى بكلّ دفقات الحبّ والحرص. وتقع الطّامّة الكبرى حين يحاول يوما ما كسر هذا الإطار والخروج منه، مسبّبا للقلب نزيفا قد يستصعب الأطبّاء إيجاد العلاج له. وقد يرفض النازف تقبّل الدّواء، إن وُجد، لغضب يشعره بعظم البلاء وفداحة الأمر... فتتحوّل صاده إلى صحراء ، تتيه فيها المشاعر، وتتناثر مع حبّات الرّمل التي ينسفها الهواء نسفا. وربما تلفحها حرارة الشّمس، فتَصلَى، وقد تحرق صاحبها حرقا...

وتغدو كذلك صدّا لما ينبعث في القلب من شعور؛ ليؤمن بالصّديق من جديد، فيبقى رهن العدميّة، بعد أن كان طليقا ينشر خلجاته ورغباته بكلّ راحة وحريّة.

وتصبح دال درع الحماية، دال دوّامة، يحوم فيها كالمخذول المهزوم الذي جلدته حبال الظّلم، وتركته يندب سوء الحظّ، ويذرف شؤم الدّمع... وقد تصبح ديمة تمطر أسى ولوعة، كلّما غام الفكر، وطمع بمطر ينعش قحط الأحاسيس وجفافها.

وياؤه تَبيتُ يأسا يطفئ نور الأمل الذي كان يصاحب كلّ خطوة يخطوها، حاملا شعلة الصّدق بيد المحبّة الممدودة لنشر مطرّزات جميل العمل؛ ابتغاء نيل الحظوة ممّن ألهمه السّير على الصّراط المستقيم.

أما قافه فتمسي قلقا يساور المخذول، ويجعله يخشى من يقترب منه؛ خوفا من غدر جديد يتعبه، أو ضربة توجعه، أو قسوة تؤرّقه. ولربّما أمست قسوة تجعل الثّقة بالآخرين محالة، وتقفز إلى مخيّلته أفكار تفسّر كلّ تقرّب مستقبليّ منه أنّه ذو غاية، وتراوده هواجس تحثّه على البقاء بعيدا عن عوالم اعتادها، وتدخله في غابة يستصعب الخروج من بين ما تشابك من أغصانها...

وتظلّ النّفس توّاقة لجنّة الصّدق والرّزانة. لكنّها، تخشى جحيم الخيانة التي لا يجديها نفعا بعد كيّها، تأنيب النّفس اللّوامة. لذا، يغلب توقَها الحرصُ وحسنُ الدّراية، فتفضّل البقاء على ذكرى من شاركتهم حديقة الودّ، ورموا ورودها في قبر الوأد، وإن عيل صبر تلك الذّكرى، وراحت توسوس للعقل بعِظَم البلوى، وخيانة الأمانة...

رؤيتنا ورؤيتهم

هي رؤية نرسم حسبها سبل حياتنا إيمانا بمضمونها؛ لأنّها أفكار جنيناها من أزهار حدائق التّجربة، وموسوعة المعرفة الحياتيّة... نطبّقها ونهديها لمن نرغب؛ كي يمتصوها عسلا تحلو به أيّامهم، وتشفى صدورهم من كلّ ما يغيظهم، وتتّسع مسامات رئاتهم؛ لتتنفّس هواء المحبّة والتّوفيق والرّاحة...

تستمتع الأذواق بنكهة تلك الرّؤية، وتستسيغ طعمها فترة، لنرى أصحابها بعد حين يرجمونا برؤيتهم التي تريدنا أن نتذوّق العسل الذي أسلناه سلسبيلا، غِسلينا ينسينا طعم كلّ أنواع المذاقات الطيّبة...

نقدّم العطاء على زمرّد الموائد بألوان ونكهات عديدة... يتذوّقها المتذوّقون، ويزيدون، حتّى يملأوا بطون حاجاتهم التي قرقرت، وصاحت طالبة النّجدة والإسعاف. بعد التّخمة، نجدهم يتجشّأون اللّعنة والتّبجّح على ذلك العطاء؛ لأنّ من قدّمه ليس بأفضل منهم، ولا يصحّ أن يرفل بعباءات الخيرات تلك؛ كي يزمّل بها من أرّقهم برد الحاجة

للرّثّ من نعيم المغدقين... ويرموننا بشظايا أمانيّهم التي يطلبون فيها جدب موائدنا؛ كي نكون وإيّاهم سواسية، في بؤس الحال وسوء المآل.

تزيّن أفكارنا مَن نعزهمّ بالتّيجان الزّمرّديّة، نضعها على رؤوسهم، ونجلسهم أمامنا على عرش النّزاهة الأبديّة، فنلقاهم عقب ذلك يلفّون أفكارهم نحونا بأسمال غجريّة، ويقعدونا أمامهم على رصيف الامتلاك والإذلال... فنكفر بملكيّة المشاعر الإنسانيّة التي نطمح أن يرتقي بها الكثيرون، متنزّهين عن الأنانيّة التي باتت الموجّه لتحرّكات العديد، فتجرّهم إلى ساحات غوغائيّة، بعد الطّمع فيهم بالبقاء في باحات ورحاب الصّفاء والطّهر والحماية الرّحمانيّة... وتضحي الأفكار السّامية سورة غضب يخطّ سطوره، وربّما حضّر ساطوره للإجهاز على كلّ فكرة؛ لئلّا تجهض مسبّبة نزيفا قد يؤدّي إلى تشويه ما سيولد معه من إخوة للأفكار في غير وجهة وطريق.

نصبّ الحبّ بكؤوس بلّوريّة على رؤوس مَن نحبّ؛ ليرتشفوا الهناء، ويتذوّقوا السّعادة، ويحلّقوا في فضاء الودّ قاطفين ما يحلو لهم من ورد الحياة، مردّدين أهزوجة وجد الأيّام، نائمين على سرر مفروشة بديباج الفرح، سكارى بخمر جميل الأفكار... يمسون ليالي كثيرة في نشوة الحظّ والفوز بكلّ مرغوب، وفي إحدى الصّباحات نجد

أكفّهم، بعد أن دغدغتهم أصابع الرّاحة، تصفع وجوهنا، وكأنّها كؤوس خشبيّة ملآى بسمّ الأشربة ؛ لنكرعها ونبقى نلهث وراءهم؛ بكاء على ترياق يفكّ شيفرة مزيج الأذيّة والشرّ. وقد يجعلنا هذا الأمر سُقاة شغفين بسكب حنظل المشروبات في كؤوس نجرّعها من أهاننا وأرادنا عبيدا، ناسيا ما زيّنّاه به من لآلئ عاطفيّة، وأعددناه له من زرابيّ حريريّة...

ومع اختلاف المعايير، وتضارب الآراء، والصّفع لخدّ العطاء، والعضّ ليد الإغداق، يفضّل صاحب الرّؤية العسجديّة أن يبقيها حبيسة الفكر الذي أوجدها، كي لا تداس وصاحبها، إذا ما أطلق سراحها، وأرسلت إلى ديار مضيفين لا يعرفون قيمتها، ولا يدركون عظمتها.

ذُبول اللوتس

عندما يتراكم السّخم والوخم، ويتحوّل ماء النّهر الذي تعيش فيه اللوتس إلى مستنقع كثير اللّوث، فقد تبدأ جذورها بالاختناق، فتحاول التّأقلم مع البيئة الجديدة، وتنبت نوعا من الجذور القادرة على تطهير الماء، وامتصاص ما يلزمها من ماء طهور للحفاظ على حلاوة الطّعم. تستخدم وسائل كثيرة ممّا منحتها إيّاها الطّبيعة، وممّا اكتسبتها؛ لتبقى على قيد الحياة، فتجد نفسها مع مرور الأيّام أنّها لم تعد الزّهرة المفرحة لذاتها، والتي تبثّ المسرّة للآخرين حين الاقتراب منها، ربمّا شاكين، أو مسرورين، ويغادرونها فرحين جذلين...

وقد لا تستحمل مشقّة الجهد المبذول للتّأقلم، فيراودها الشّعور بوقف نشاطها الجديد، والتّخلي عن رغبة التّحدّي لإحساسها بعدميّة جدوى تواجدها في المكان غير الملائم، وينتابها الاصفرار وتبدأ بالذّبول... وتعيش مرحلة الصّراع ما بين البقاء والفناء، وتواجه حالة نزع

غريبة. وبين انطفاء نور الحياة، ووهج بارقة الأمل بالبقاء، تتأرجح على أرجوحتيّ الحياة والموت.

يذكّرها علوّ شوط التّأرجح بالشّمس التي تشرق عليها كلّ صباح، شاحنة إيّاها بطاقة النّور والاستمراريّة، فترشح حبيبات ندى أمل جديد يدعو للخضوع والرّضا، رغم ارتفاع الزّهرة التي ستتفتّح وتفيض جمالا، وتعشق النّور الآتي من الأعالي، مدفئا الجذور التي تغوص في نتانة الوحل، ومزوّدا إيّاها بقوّة الصّمود والتّغلّب على كلّ طحالب الماء الآسن التي أوقفت جريان النّهر، ومنعَت تدفّق المناهل العذبة التي تحتاجها؛ كي تبقى الزّهرة المحافظة على ما زوّدتها به القوى الإلهيّة... وفي نفس الوقت تحتاج لقوّة وعزيمة؛ كي توقف تزايد الاصفرار،وتستعيد الاخضرار. فقد تؤدّي حرارة شمس الأمل والحياة الآنيّة إلى التّسبّب باليبس، إذا ما تجاوزت حدّ التّدفئة!. ولا تدري كم ستستغرق رحلتها النّضاليّة لاستعادة نضارتها بعد الذّبول الذي داهمها.

أهلا بالزّائر العزيز

أيّها الزّائر الذي يطول غيابه عنّا؛ وكأنّا بك المتيّم بقول الشّاعر :"زر غبّا تزد حبّا"...

إنّي أرى بعينك عيون الصّغار النّازفة مآقيها؛ بسبب سكّين جشع وبطش الكبار، الذي قطّع حبال وصل سعادتهم، والقى بهم في أحضان القسوة ...

أرى تلك العيون آملة أن تحلّ في ديار أصحابها ضيفا؛ كي يسعدوا، ويغترفوا من خلايا جِلابك ما يحلّون به أفواههم، التي تتذوّق مكرهة حنظل الأيّام العصيبة ...!

وها أنت لدى نزولك في تلك الدّيار لا تبخل عليهم، وتأتي بلحظاتك الهانئة، وبجعبتك السّاكبة للخير الذي يشتهون ... ولحلولك ضيفا كريما عليهم، يهلّلون ويمدحون... وهم لمرسلك شاكرون ... وديمومتك بينهم يأملون؛ رغم عدم تمكّنك من المكوث طويلا حيث يقيمون ...

أرى بعينك عيون الأطفال الأخر، الذين أنعم عليهم بارئهم بالعيش الرّغيد ، وسطر الفرح حروفه في دروبهم، يلتقطونها أنّى يسيرون ، وكيف يتّجهون ...

ورغم فرحهم الذي هم عليه معتادون ، يقفون، وبلهفة الولهان، قدومك ينتظرون ، وبك يرحّبون ... ففرحك يختلف عمّا اعتادوه من فرح متجسّد بالنقود، ورهف العيش ... إنّه فرح حسيّ ترحّب به الرّوح قبل الجسد ...

فنعم الزّائر أنت ! وبك التّرحيب أنّى حللت ! ونعم الإقامة إقامتك! في ملاعب، وقصور، وبيوت، وخيام، وأسرّة الصّغار، دون تمييز بين طبقاتهم، التي تخترقها بنفس الرّوح؛ متحدّيا وباسطا بساط الفرح تحت أقدام الجميع دون مَنّ أو أذى؛ رغم كثرة الأيدي التي تسحب أبسطة السّعادة من تحت أقدام كثيرة؛ لتفرش مكانها ألواح الصّبّار بأشواكها الأليمة ...

أرى بعينك عبادات المصلّين، التي تصدح بها المآذن والحناجر، وتبهجُ النّاسَ كلماتُ من يعتلون المنابر، المزيّنة بأنوار الرّحمة، تلك الكلمات ذات الرّائحة التي تفوح ناشرة أريج الأخوّة والتّرابط

والبشاشة؛ ليغلّف الوجوه داعيا إيّاها إلى اللّحاق بالرّكب المهلّل، فتغدو مهرولة لاحتضانك ،وشاكرة باعثك، بتكبيرات يهزّ صداها أركان الفضاء الفسيح، باهتزاز يقوّي التّماسك والتّلاحم ولا يُقويه...

أرى بعينك عباد الرّحمن الذين يطّوّفون بالبيت العتيق، والتّعب والإرهاق للذّكر غير معيق ... ودموع التّوبة والنّدم ترحّب بدموع الفرح بالتّصفيق ... لضيف يذكّرهم بعفو
الله الواسع دون تضييق، لمن أخلص وتاب وبذل من أجله الغالي والنّفيس ...
وأرى فيك بهجة من اصطفّوا حول كنائسهم، منتظرين دقّات الأجراس معلنة ميلاد عام جديد، ومودّعة عاما مدثّرا بآمال تحقّقت، وسلّم مفاتيحها للغد الجديد؛ كي يكمل أصحابها فتح بوّابات الخير الذي نالوه، ويرغبون أن يبقوه، أو راثية تعاسة أجهضت على أحلام كثيرين، وربّما أغرتهم دقّات فرحها ببزوغ فجر أكثر إشراقا، وأيسر طُرقا؛ لتحقيق ما إليه يطمحون...
فيا لك من ضيف تحمل على أجنحتك بشائر الخي؛ لتضيء بها فوانيس الأمل، التي ينتظرها مريدوك!.

أرى بعينك العدل الذي تنشره عباءات الغبطة الحريريّة على الجميع بلا تمييز ، وكأنّك قاضي السّرور والبهجة الذي يفرض على كلّ القلوب الامتثال للأمر؛ رغبة في إزالة همّ كلّ مهموم ، وتفريج كربة المكروب ، الذي يصدر الأوامر لقلبه بعدم دفق دم السّعادة والفرح الطّروب ...

ويا له من عدل حين يتوّج بوقت محدّد؛ تبغي فيه السّيطرة على جميع القلوب، وتوحّد وقت بث المشاعر الاحتفاليّة؛ جاعلا أصحابها سواسية رغم ما هم فيه مختلفون!.

فمرحبا بك أيّها العيد الذي يحلّ ضيفا على كثير من الرّبوع؛ مشعلا مشاعل البهجة ، وجاعلا شرايين القلوب تتدفّق بسائل المحبّة المعطّر بشذا الفرح؛ لينشر بين الورى مودّة وألفة... وشكرا لمن أرسلك زائرا، يحفِنُ من جعبته حفنات الخير، والعدل، والوحدة والسّرور، وناثرا إيّاها في وجوه محبّيه بكلّ حبور...

صديقي

كلّما داهمتني دياجير الظّلمة، وبدأت أخبط خبط عشواء، كنتَ النّور الذي يضيئها ويبدّل اهتزاز الخوف بقشعريرة السّكينة التي تبسط أهدابها على قلبي، وتحمل رجليّ على المسير، وتفتح لي بوّابة الطّمأنينة على مصراعيها؛ داعيا إيّاي العبور منها، وأحراز الهدف.

وإذا ما أخطأت في إحراز الهدف، فأنت الدّليل الذي يخطّ لي الخطوط مستقيمة، ويمسك بتلابيبي؛ خوفا عليّ من التّيه أو التّعثر . ورغم الإرشاد، فقد تصاب العينان بالعشا، فلا تريان استقامة الدّرب فيترنّح الجسد. وخوفا عليه من السّقوط، تأتي مقوّما، وداعما إيّاه؛ ليستقيم كما الخطوط؛ كي لا يلتهمني الخطأ ويلدني خطيئة!.

وإن أبَتِ النّفس الأمارة بالسّوء أن يسير الجسد بعد تقويمه حسب استقامة الخطوط، فإنّك تسلّط عليها النّفس اللوّامة كي تقهرها، وتجهز

على وليدها، وتعيد لجسدي صحّة خطواته وثباتها، وتطهّره من براثن العناد والجهل .

وإذا عاود الشّيطان الوسوسة، وتعثّرت الخطوات، وسيطرت عليها بعض الهفوات، وتورّم الجسد من أدران الإثم والخطيئة، وأحسّت النّفس أنّها لم تعد، كما كانت، بريئة، وحاولت التّطهّر من وزر الذّنوب التي تراها دنيئة؛ لتستردّ الأمن والأمان، وتحيى حياة هنيئة، فلا تجد سوى عصاك تهشّ بها على شجرة الخطيئة؛ لتثمر قطوف الفضيلة، وتتلف فجّ الرّذيلة، وتوسّع بساتين الخير، وتعيد دروبها القويمة.

وإن جاءت الأقدار بما لا تشتهيه الأنفس، فسخطت على صعوبة الحاضر، ورَثَت الحظّ العاثر، ومقتت الواقع، وصرخت بصوت هادر، وتمتمت محتجّة بحكم جائر، قد يؤدّي إلى سخط الرحمن، وجعل ما تشكو منه نصيبها الدّائم، والواقع القائم... يأت وميضك؛ ليذكّر بأهميّة الرّضا، والصّبر على ما حكم الله وقضى، وربّما كان الخير بين طيّات ما مضى، رغم هول ما كنّا نرى من سياط القهر

والجوى... يخمد لهيب نيران الشّكوى والغضب، ويشعل شموع الشّكر ملجمة ألسنة التذّمر والعتب.

وإن غاب الجميع، ونسيني الزّمان في زوايا الوحدة، يفتّتت صقيعها عظام الثّبات، ويهتف زمهريرها في الرّأس موجعا إيّاه، وجاعلا حيويّة الفكر في سبات، ومُبقيه مترنّحا دون متّكأ أو نصير أو معين، ويعجّ بالزّفرات والأنّات، فإنّك تحضر لوجع تلك الآهات، وسخط الكلمات؛ لتكون الصّدر اللّيّن الواسع الذي يسند، ويعيد للجسد الخائر القوى، حيويّته، وللنّفس المشبعة رهقا وقهرا طمأنينتها، ولرغبة الحياة استمراريّتها...وتكون خير منقذ، وتعيد ليَدي منسأتها...

فيا أيها الصّديق ابقَ في حياضي خائضا؛ كي تدثّر خوضي بطهر الثّياب، وتحميَني من لوث المياه، وأنا لغور أعماقها جاهلة، وعن لوثتها غافلة... ولطهرها، ولنهر مياه الخير، كن لي اليد الدافعة.

وابقَ سياجا يسوّرني بالنّور والمحبّة والعطاء، ويقيني من أشواك المغرضين والبلهاء؛ لأحرص على إبقاء زهرة الرّوح التي أنبتها الخالق في أفضل وعاء ...

ولا يستطيع فعل ذلك سواك أيّها الصّديق المسمّى... الإيمان .

حَفنـاتٌ وأكوامٌ

تتراقص فراشات الفرح حول قناديل مشاعرنا، فتحملنا على أجنحتها وتطير بنا عاليا؛ لنتحرّر من قوّة جذب الأديم الذي يحاول جاهدا إرجاعنا، ونقبع في سديم السّعادة الذي يشعرنا بالتّحرّر من كلّ قيود الجسد والفكر، ونحيا لحظاتِ غطسٍ في نهر التّطهير من كلّ ما يعكّر صفو الشّاردات والواردات، ونغرس على ضفّتيه شجيرات نتمنّى بقاءها مخضرّة بأوراق البهجة، وتيسير كلّ عسير، ومثمرة بثمار الطّمأنينة، وطرد كلّ تكدير.

تمطرنا مزنة جميل الأحاسيس برشّات متواصلة تبلّلنا بفرح يدفئ القلوب والنّفوس، وينسينا برد وصقيع الأحزان المثقِلة للكواهل، وتنوّخ بحملها الظّهور. فتنهض القامات مجدّدة نشاطها ومشرئبّة نحو مطر الفرح؛ طمعا بخيراته، ووافر عطائه...

يرطّب ندى السّعادة المشاعر بطيب شذاه، فتهيم في روض السّرور عازفة على أوتار الرّاحة التي جعلتها النّغمة تغادر سجن الجسد؛

لتحمّل ذاك العزف نسيم الجذل؛ كي ينشره في أجواء من يرحّبون به، ويحرصون على حفظه في أسطوانات أفئدتهم.

وتدغدغ أنامل السّرور الفكر، فتليّن بعض ما تشنّج من أمور، وعجز عن إيجاد المخرج لها، وينشر حرير مخيّلته بساطا يفترشه مرتاحا، ويزركشه بجميل ما يسيل من عصارات ذاك الفكر .

وتبقى أجنحة فراشات الفرح مرفرفة حتّى تتفاجأ بتحوّل المزنة المنعشة إلى غيمة سوداء ترشق الهامات بزخّات من الهموم، فتقبع حانية في وحل التّعاسة، وما تأتي به من شرور، ويخبو نور الحياة الذي سطع، وتفتر حرارة كلّ ما أدفأ.

ويشعرنا الحزن بثقل يلصقنا بالأرض، وينسينا كلّ نجم مضيء في السّماء؛ لأنّ العيون تتسمّر حدقاتها في الطّين الذي يمسك بالقدمين، فتتحوّل مخيلة الأفكار التي نعمت بجميل الصّور، ومبهجات النّظر إلى لوحة تمتصّ كلّ ألوان الصّور، وتزداد قتامة تثقل على الفكر، فتبدأ مطارق ما يزعج ويحزن بخبط الرّؤوس، بعد أن كانت لا تجرؤ على رفع رأسها، وتقفز لتجلد الجسد والنّفس، فلا تستطيع المقاومة بسبب نور الفرح. وقد تثقل السّوداويّة على الفكر، فيبدأ ببناء أكوام من حبّات صغيرة طرقت بابه...ولا يبقى دور للخيال الجميل الذي

يحلّق في بياض الأفق، بل قد يغطس الفكر عميقا؛ لانتشال ما عنّ على الخاطر، وكدّر الصّفو، ودفن في العقل الباطن...

والعجب، كلّ العجب من نسيان المشاعر الطّيّبة، حين تداهمنا أكوام ما يحزن، وإن لمعت بعض خيوط الإضاءة لتخفيف حدّة القتامة، فإنّنا نراها سلاسل قهر تزيد الجرح إيلاما، ويزداد لهيب أتّون الغضب المشعل بحطب التّبرّم، ويتألّم الجسد، وتنصلي الأحاسيس، فندخل في خندق يأوينا، حتّى نصل نهايته منهكين... ولدى خروجنا منه لا يهمّنا الضّوء الذي بزغ نوره، وبدّد ظلمة الأعماق، فنقعد عاجزين مستسلمين، لا نريد رؤية الشّمس وشروقها؛ لأنّنا نغطّيها بغيوم أفكارنا، فنندب حظّنا ومصائرنا، ونزيد من أكوام أحزاننا دافنين كلّ أفراحنا...

جمرة وثلج

همس لذات صاحبه معدّدا ميزاته: أنا من أوقفك على أرصفة الإحجام، قبل الجلوس على أرائك الإقدام، وأدعوك لدوائر التّكذيب قبل المكوث في مربّعات التّصديق...

أبذر في سهول أفكارك، مبكرا الموسم؛ كي تظلّ البذور قيد النّبش قبل التّغلغل والتّشبّث بالتّربة... قد يروقك الأمر فتغطّيها؛ لتنمو وتورق، وأنت مطمئنّ النّفس، ولا تقطف الثّمار إن أثمرت إلّا إذا تأكّدت من جودتها، وطيب مذاقها.

أدعوك دوما للجلوس على كرسي نزع الثّقة من كلّ المحيطين بك، فلا تسمع لمن كان أقلّ منك مالا بالاقتراب ممّا تملك؛ خوفا من أن تسوّل له نفسه اشتهاء ما عندك، ولا تأذن لمن أحببته وأدخلته رياضك بأن ينعم بغدق وبهاء تلك الرّياض، فتظلّ عيناك له مراقبة، ونفسك منه مرتابة، وأفكارك حائرة ما بين إيوائه وإقصائه.

أحصد بمنجلي سنابل حقول أحلامك، وأبقي لك زيوانها؛ لتذوق مرّ الطّعم، وتبتعد عن نعيم الرّؤى... فتشكو وتستنجد حتّى تكلّ؛ لتحظى بفتوى لحلمك ورؤياك، وتمشي صوب دروب التّحقيق...

أجرّك لفرن التّخبّطات، وأنت ممسك بيد الاستقرار، فيحرقك اللّهيب، ويحرمك من برد وسلام الثّبات...

إن فرحت لبياض الأمور، لا أطيل عليك لحظات الهناءة، فأباغتك وأوقفك أمام سود السّتائر التي تلحّقك، وتمنع اختراق خيوط البياض لسوادها، فتقبع في غياهب جبّ أمرك تنتظر بعض السّيّارة؛ ليزيحوا عنك تلك السّتائر، وترى بياض الأفق الذي يعيدك للتّحليق، وبيض غيمات بعض أمانيّك.

أجلس على صدرك أخطبوطا تلتقط أذرعي كلّ صيد تنوي التّمتّع به، وأريك إيّاه جيفة، بعدما رأيته تحفة؛ لتعافه نفسك، وتشمئزّ منه روحك...

أحيانا، قد تكره التّلفظ باسمي أو تخيُّل حرفيّ؛ لأنّهما يشكّلان بالنّسبة لك مصيدة تغريك بدسَم أجبانها، لتجد نفسك داخلها يعتصرك ضغط أجزائها.، فتنتبه لمساوئي.

وفيما الشّكّ غائص في آسن المياه، وتاركا عذبها مغذّيا طحالب ذاك الماء، ونتانة رائحته، وإذ باليقين يأتي سابحا في أجاج الذّات؛ ليهدّئ من روعها، ومتحدّيا إيّاه:

أيّها الخائض بين ثنايا سليم الأمور لإفسادها، احفَظْ عليك مكرك، ودع ما توسوس به ذاتك؛ لأنّ هناك من هو أقوى منك، مَن يقوّم سيف الباطل الذي تتغمّده.

إنّي من ينتصر عليك دائما... عندما أنهض تغطّ أنت في سبات عميق، ولن يفطن أحد لإيقاظك، فلا رغبة لإخراج حيّة من وكرها؛ لتنفث سمومها أنّى توجّهت...

أنا من يأمر بقطف أجود ثمار الإنجاز، ووضعها في سلّات الفرح؛ كي ينعم بها صاحبها ويسرّ... وإذا ما فسدت ثمرة من تلك الثّمار، أهبّ محذّرا وصائحا لإبعادها، ولا أزرع في قلب البستانيّ الخوف من فساد الجنى.

أنا من يعلّق ثريّات النّور؛ كي تسطع بأضوائها وتسرّ النّاظرين في طرق التّخطيط، وإنجاز ما ينفع ويسير بالحياة قُدما، ويعلي من شأن مَن كان تحت القهر يقبع.

أُري الغراسَ عاليةً، والثّمارَ ناضجةً لمن أمسك بيده الفسيلة والمعول، وهمّ بالغرس، وبالأمل والصّبر تجمّل، مسابقا الطّيور في بكورها، والشّمس في شروقها.

أجعل الكريم يغدق بعطائه، والأمين يزيد من وفائه، والوجوه تفيض بشرا، والقلوب تطفح حبّا، والنّفس تعمر إيمانا وصدقا.

أبني صروح الثّقة، وأعلي لها البنيان، وأنشر عطر الأمان في كلّ مكان؛ ليعيش الإنسان هانئا متحدّيا صعاب الزّمان.

أُجلس صاحبي على أرائك النّعيم؛ كي ينعم بهدأة البال ويستكين... ولا أبقيه تحت سياط التّردّد، ووخز الإبر ما بين التّصديق والتّكذيب... وأجعل المجافي منتظرا وصال الحبيب، والفقير حالما برغد العيش لا ذلّه، والعاصي طامعا برضا ربّ العالمين لا سخطه... فكيف لا، وأنا اليقين؟!.

كَلْمٌ ... وكَلَمٌ

أيّتها الكلمة التي غدت كلْمًا ينزف الآهات والأنّات من خناجر الدّهر، وويلات الزّمان، صابّا نزفه في مرزاب يدلف في بئر حزن، يُقفَل عليه بقفل الحرص؛ كي يظلّ رهينة المشاعر... يفتحها المكلوم، كلّما عنَّ وجعُ الكَلْم على الخاطر؛ لينتشل الهموم دلاءً، ويستحمّ بمائها ترطيبا للجسد الذي تعمّد حزنا، وأقسم يمين الولاء لعبوديّة أقسى المشاعر...

كفى بكِ كلْمًا دائم التّذكير بجمرة الألم، وسعال الأمل، وحشرجة الفرح، وزفرة الأسى...

وحريّ بكِ أن تكوني كَلِمًا رقراقا كجدولٍ يبعث في النّفس السّرور، ويطهّرها من طمي الأحزان، وعَكر الشّجون... وبسمةً ترتسم على الشّفاه المتعطّشة لرذاذ الفرح، وندى الأمل ... وشدوَ

طائر دعته أغصانُ الرّبيع نشوانَ بتخلّصه من صقيع وزمهرير الشّتاء.

أريدكِ فيضَ حنان ينعش عطش القلوب التي أقعدها الخريف طويلا بين أضلاع الجفاف والتّشقّق، منتظرة غيث السّماء...

وحقلَ فرح تُبذر فيه بذور الأمانيّ ، وتسقى بماء التّفاؤل لتُقطف شتلات سعادة ... وجبٌّ كَرَم يجود بدلاء المحبّة على القلوب؛ لتفيض حبّا...

عقائِصُ ذكرى

من بين طيّات السّنين قفزت صور وقعدت في مرسم الذّكريات؛ نافضة عنها ما علق من غبار قديم السّفر... فأجلستني قبالتها أستعيد ما جرجرته عجلات الأيّام من عمري، وأحصي من نجوم السّنين ما قد أفل...

أقبع هناك، فتتكوّم أفكار أمامي، تحملق لمرآها العينان، وتدهش لزفير الآه وفحيح الأنين الأذنان. فها هما يعجنان بماء تأوّهاتهما قمح الأفكار وزهر العواطف، نازعَين منهما الخصب وماء الحياة.

وتستمرّ عدسات الذّكرى بعرض صورها غير مبالية،تطوي الصّفحات طيّا؛ لتقعدني على تلّة الحياة؛ ناظرة وعورة ما تبقّى وتدعوني لأعدّ لذلك العدّة، وأشدّ حزام الصّبر لتحمّل وتفادي عثرات الطّريق وما سألقى...

ها قد جفاني الفرح وغادرني إلى ديار بعيدة، ولا أجد لردّه سبيلا ... وبات الخلّان في منأى عنّي، ونسيني من إليه أطمئن وأشكو

ويلات حرماني من طيب ما يهفو له قلبي، وتتلوّى له الأحشاء شوقا وحنينا... وبات الجسد يشكو ثقل الحمل الذي ناخ تحت أرزائه طويلا...

فيا قلب، قد أتعبني خفقك احتجاجا، ولا أجد لتهدئتك تربيتة كفّ، أو دواء يشفي الغليل.

ويا وجه، قد أرهقتني بسمة التّحدّي، فلم أعد أقدر على تلقّي صفعة حزن الخدّ الأيمن بضحكة الخدّ الأيسر، وبث المسرّات لمن جاء يشكو، وعلى رصيف الهموم يحبو.

ويا فرح ذكرى يوم مولدي تلاشت خيوطك حين غزتها صفرة خريف الغضب واليأس،حيث بتّ تشعرني بتساقط أوراق شجرة أحلامي، وضآلة واضمحلال آمالي... أنفث عليك من دخان التّذمّر، وأحجبك بضباب الفكر، وأعاند جميل شعور يقاوم حشرجة اليأس ليبثّ في داخلي سنا لهفة يغذّي جذوع شجرة العمر لتورق بأوراق الرّضا، ويثبّت الجذور في ترب التّفاؤل وحثّ الخطى...

وعلى حين غفلة، تصفعني المشاعر وتلفّ أشرطة الذكرى؛ قاذفة إيّاها في تابوت النّسيان الأبديّ؛ لئلا تفسد عليها جمال الحياة واستغلال كلّ لحظة؛ هاتفة وداعية روحي كي تغنّي لزرع الرّبيع؛ لتحظى بحصاد قمح الصّيف . فحطّت على كتفي فراشات الأمل

طاردة دبابير الهمّ والجوى، وداعية ورود الفكر لتزهر وتتمايل تيها في روض الهناء، لا زاحفة في دروب شوك وجفاف الحياة ...